الفصل الثالث

التجديد فى المديح والهجاء

١

مديح الأخطل والفرزدق وجرير

إنما اخترنا هؤلاء الشعراء الثلاثة لتصوير ما أصاب المديح عندهم من تطور وتجديد ، وسنختارهم فيما بعد لتصوير ما أصاب الهجاء هو الآخر من تطور وتجديد ، لأن نقاد العصر العباسى وأدباءه اتفقوا على أنهم أشعر أهل العصر الأموى ، فهم الطبقة الأولى من الشعراء الأمويين ، وهم فحول الشعر العربى حينئذ وأقطابه الكبرى[١] . وما يزال النقاد والأدباء المُحْدَثُون يعتنقون هذا الرأى ويؤمنون به ، ولذلك رأينا أن نفسّر ما أصاب الفرعين الكبيرين فى شجرة الشعر العربى ، فرعى المديح والهجاء ، من تحوير وتغيير فى شعرهم خاصة ، لأنهم خَيْرُ من يمثّل العصر ، ولأنهم دفعوا فَنَّى الشعر حقًّا إلى التعبير عن طاقات جديدة ، وقد ذهب شعرهم — أو كاد — فى تدبيج قصيدتى المديح والهجاء .

أما الأخطل فن تَغْلِب ، وهى قبيلة كبيرة ، كانت تنزل فى الجزيرة ، وتمتد عشائرها وبطونها جنوبًا حتى الحيرة ، وغربًا حتى حدود الشام ، وشمالاً وشرقًا حتى أذْرَبيجان[٢] . وقد تسربت إليها المسيحية فى العصر الجاهلى . وظلت على مسيحيتها فى العصر الأموى إلا طائفة قليلة دخلت فى الإسلام . ونراها فى الفترة الأولى من الفتوح الإسلامية تقف فى صفوف الفرس والروم فيتصدّى لها

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ٨/٤ — ٥ ، ٨/٢٨٢ و ١٠/٩٠ .

(٢) انظر فى منازل تغلب Lammens، Le Chantre des Omiades (Paris.) p. 3. وانظر أيضاً الأغانى (طبع الساسى) ١٠/٩٣، ١١/٥٨ ، ١٣/١٤٧ ، ٢٠/١٢٢ .

خالد بن الوليد ، ويُنَكِّلُ بها ويُمَزِّقُها شرَّ مُمَزَّق[١] ، فتضطرُّ إلى الاعتراف بسلطان الخلافة الإسلامية ، ويذهب وفدٌ منها إلى عمر بن الخطاب ، فيعاملهم معاملة حسنة ، ويقبل ألا يدفعوا جِزْيَةَ الأجانب من غير العرب ، إنما يدفعون صدقة المسلمين من العرب على أن لا يُنَصِّروا أعداء الإسلام[٢] .

ونتقدم فنجد تَغْلِب فى صِفِّين ، وقد شهرت سيوفها مع معاوية وقبائل الشام اليمنية فى وجْه علىٍّ وأصحابه . وظلت بعد ذلك موالية لبنى أمية ، فنحن نجدها فى صفوف يزيد بن معاوية فى موقعة الحَرَّة التى اصطلى نارَها الخارجون عليه من أهل المدينة ، كما نجدها فى صفوف مَرْوان بن الحكَم فى موقعة مَرْجِ رَاهِط التى اندحرت فيها القبائل القيسية .

وفى هذه القبيلة نبَت الأخْطَل ، واسمه غِياث بن غَوْث ، وهو من بنى جُشَم بن بكْر أحد فروع القبيلة المهمة . ولسنا نعرف متى وُلِدَ بالضبط ، ويظهر أنه ولد حول سنة ٢٠ للهجرة ، وكانت ولادته فى الحيرة كما يذكر صاحب الأغانى[٣] والنصوص المتصلة بنشأة الأخْطَل قليلة ، وهناك رواية تذهب إلى أن زَوْج أبيه كانت تُضَيِّق عليه ، فكانا يتشاجران[٤] ، ويقال إنها هى التى لقَّبته دَوْبَلاً ، والدوبل الحمار الصغير . أما الأخطل وهو اللقب الذى عُرِف به ، ومعناه السفيه ، فيقال إن الذى لقَّبَه به كَعْب بن جُعَيْل أحد شعراء عشيرته ، لـمَّا رأى فيه من شرّ ، إذ كان كثير الوقوع فى أعراض الناس[٥] .

ويتضح هذا الخلق فيما يُرْوَى عن اتصاله بيزيد بن معاوية وهجائه الأنصار إرضاءً له ، فقد كان الأنصار مغاضبين لبنى أمية منذ الحوادث التى قُتل فيها عثمان ، إذ قُتل بين ظَهْرَانيهم ولم يدافعوا عنه ، ثم بايعوا عليًّا وذهبوا معه إلى صِفِّين لحرب معاوية وأنصاره[٦] ، ولما دارَ الزمنُ دورته وأصبح معاوية هو الخليفة كان يَعُدُّهم قَتَلَةَ عثمان وأعداءه[٧] .

(١) طبرى ٢٠٦٢/١ وما بعدها ، ٢٠٧٢/١ وفتوح البلدان للبلاذرى ص ١١٠ .
(٢) طبرى ٢٤٨٢/١ ، والبلاذرى ص٧٥ ، والكامل لابن الأثير (طبع أوربا) ٤١٠/٢ .
(٣) أغانى (طبع الساسى) ١٦٢/٧ وانظر الأغانى (طبع دار الكتب) ٢٨٢/٨ والتعليق فى الهامش .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ٣٠١/٨ .
(٥) أغانى ٢٨٠/٨ .
(٦) مروج الذهب للمسعودى ٣١٠/٤ واليعقوبى ٢٠٦/٢ وما بعدها .
(٧) الطبرى ٩٢/٢ .

وعلى هذا النحو لم يكن الأنصار من هَوَى معاوية وبيت بنى أمية ، وقد أغْمَدُوا سيوفهم بعد موقعة صفين ، ولكنهم لم يُغْمِدُوا ألسنتهم ، فإن شعراءَهم أخذوا يهجون شعراء بنى أمية ، وطار الشرُّ فى المدينة بين عبد الرحمن بن حسان ابن ثابت وعبد الرحمن بن الحكَم أخى مَرْوان بن الحكَم فتهاجيا هجاءً مرًّا[1]. وكان ابنُ حَسَّان يتعرض لنساء بنى أمية ، فيتغزَّل بهن لغرض الإزراء عليهن . وممن تغزَّل بها منهن رَمْلَة بنت معاوية ، فغضب أخوها يزيد ، ودعا الشعراء إلى هجاء ابن حسان وأهله من الأنصار فكلهم أبَى أن يهجو مَن آوَوْا رسول الله ونَصَرُوه . وكان ممن دعاهم إلى ذلك كعب بن جُعَيْل التَّغْلبى ، وكان مسلمًا ، فقال له : « أرادّى أنت إلى الإشراك بعد الإيمان ، لا أهجو قومًا نَصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى أدُلُّك على غلام منَّا نَصْرانى ، كأن لسانه لسانُ ثَوْرٍ، يَعْنى الأخطل» فدعاه يزيد، ولبَّاه الأخْطَل[2]،فنظم فى هجاء الأنصار وشاعرهم عبد الرحمن بن حسان قصيدة دوّت فى العالم الإسلامى ، يقول فيها :

ذهبَتْ قريشٌ بالمكارم والعُـلاَ ... واللؤمُ تحتَ عمائِمِ الأنْصَارِ
فَذَرُوا المعالىَ لَسْتُمُ من أهلها ... وخذوا مَسَاحِيَكُمْ بنى النَّجَّارِ

ومن حينئذ أصبح الأخْطَل شاعر بنى أمية يعيش فى بلاطهم وفى ظلالهم . وقد اتخذه يزيد نَديمًا له ، فكان يرافقه ويلازمه حتى فى الحج إلى البيت الحرام[3]. وفى ديوانه قصائد مختلفة فى مديحه ومديح أخيه عبد الله وابنه خالد ، واستمعْ إليه يقول فى يزيد[4] :

أمَّا يَزِيدُ فإنى لَسْتُ ناسِيَهُ ... حتى يُغَيِّبَنى فى الرَّمْسِ مَلْحُودُ
جزاكَ رَبُّكَ عن مُسْتَفْرَدٍ وَحِدٍ ... نفاهُ عن أهله جُرْمٌ وتَشْرِيدُ
جزاءَ يوسُفَ إحسانًا ومَغْفِرَةً ... أو مثل ما جُزِىَ هرُونٌ وداودُ

(١) أغانى (طبع الساسى) ١٣/١٤٧ وما بعدها .
(٢) أغانى ١٣/١٤٧ ومابعدها ، ١٤/١١٨ وما بعدها ، والديوان (طبعة سنة ١٨٩١ م) ص ٣١٤ .
(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ٨/٣٠١ .
(٤) الديوان ص ١٤٧ .

أو مثلَ ما نالَ نوحٌ فى سفينته إذ استجابَ لنوحٍ وهْوَ مَنْجُودُ(١)
أعطاهُ من لذّةِ الدنيا وأسكنَهُ فى جنّةٍ نعمـةٌ فيها وتخليدُ

وواضح فى أسماء الرسل الذين ذكرهم الأخطل أنه كان مثقفًا ثقافة دينية ، وهذا طبيعى لأنه مسيحى ، وقد كان على مذهب اليعاقبة ، وفى ديوانه وأخباره ما يدل على أنه كان ابنًا بارًّا للكنيسة(٢).

وليس هذا ما يلفتنا وحده فى مدائح الأخطل فى أثناء خلافة معاوية وابنه يزيد ، فنحن نلاحظ أيضًا أنه كان يضمن مدائحه انتصار معاوية فى صِفّين ، كما يضمنها الفكرة التى كان يروّج لها معاوية والأمويون من حوله ، وهى فكرة أن الله اصطفاهم للأمة ، واستمعْ إليه يقول(٣) :

تَمّتْ جُدُودهمُ واللهُ فضّلَهمْ وجَدُّ قومٍ سواهمْ خاملٌ نكَدُ
ويومَ صِفّينَ والأبصارُ خاشعةٌ أمدَّهمْ إذ دَعَوا من ربهم مَدَدُ
وأنتمُ أهلُ بيتٍ لا يُوازِنُهمْ بيتٌ إذا عُدّتِ الأحسابُ والعَدَدُ

واستمرّ يوقّع على قيثارته هذه النغمات التى كان يستحبها البيت الأموى ، وهو توقيع ثبّته فى نفسه وأكّده أن قومه كان هواهم مع بنى أمية ، فانجرّ معهم ، وانساق فى تيارهم .

ولما تطورت الظروف بعد وفاة يزيد ، ودعا ابن الزبير لنفسه بالخلافة ، انضمّت تغلب إلى صفوف مروان بن الحكم ثم ابنه عبد الملك ، حتى إذا اجتمعت الأمة على الأخير بزَغَ نجمُ الأخطل فى بلاطه على الرغم من نصرانيته « فكان يجىء وعليه جُبّة خزٍّ وحِرْزُ خزٍّ ، فى عنقه سلسلة ذهب ، فيها صليب ذهب ، تنفض لحيتُه خمرًا ، حتى يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن(٤) » .

(١) منجود : مغموم .
(٢) انظر الفصل الخاص بدين الأخطل فى كتاب لامنس الآنف الذكر ص ١٤ وما بعدها وانظر ترجمة الأخطل الملحقة بديوانه ص ٣٣٦ وما بعدها . وانظر الأغانى (طبع دار الكتب) ٣٠٩/٨ ، ٣١٠/٨ ، ٣١٣/٨ . وفى ديوانه إشارات إلى صلبانهم (الديوان ص ٣٠٩) وأقسام بأيمان مسيحية (الديوان ص ٧١، ٧٨).
(٣) الديوان ص ١٧٢ وقد دعا يزيد بابن الإمام . انظر الديوان ص ٢٣٦ .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ٢٩٩/٨ .

ولكى نفهم موقف عبد الملك من الأخطل وتقريبه له حتى ليتخذه شاعره الرسمى لا بد أن نلاحظ العنصر السياسى فى المسألة ، فالأخطل لم يَحْظَ بكل هذا التقدير لتجويده الفنّى فى شعره ومديحه فحسب ، بل لعله إنما حَظِيَ به لما كان لقومه على عبد الملك وخلافته من أياد بيضاء . وكأن عبد الملك يرمز برضاه على الأخطل إلى رضاه على تَغْلِب المسيحية وعلى مسيحيي الشام عامة[1].

ومعنى ذلك أن الأخطل كان له مركز سياسى فى قصر عبد الملك بجانب مركزه الأدبى فى الشعر والمديح ، وإذا قلنا إنه كان سَفِير تغلب عند عبد الملك لم نُبْعِد وعلى ضوء هذه السفارة نستطيع أن نفهم كثيراً من الحوادث التى تتصل به من جهة ، وبعبد الملك من جهة ثانية ، فقد كان يُكْرِمه ويُنْزِله منزلة رفيعة ، حتى بلغ الأمر بالرواة أن زعموا أنه كان يشقُّ إليه الصفوف ، والصليبُ مُدَلّى من عنقه ، ولحيته تقطر خمراً . وهناك حادثتان رواهما أبو الفرج الأصفهانى تدلان فى وضوح على مكانته فى البلاط الأموى وأنه كان حقًّا سفيراً لقومه فيه . والحادثتان جميعاً تتصلان بالحروب التى اندلعت نيرانها بعد موقعة مَرْج ِ راهِط بين القيسيين بقيادة الجَحَّاف بن حكيم وزُفَر بن الحارث وبين تغلب قوم الأخطل . أما الأولى فتتصل بالجحاف إذ نزل مع بعض وُجُوهِ قَيْس على عبد الملك بعد قضائه على ابن الزبير ، وكان القتل استحرَّ فى تَغْلِب والقبائل القيسية ، وأراد عبد الملك أن يصلح بين الفِئَتَين ، وإذا بالأخطل يدخل ، فينشد :

ألا سائل الجَحَّافَ هل هُوَ ثائرٌ بقَتْلَى أُصِيبَتْ من سُلَيْمٍ وعامرِ

فى قصيدة طويلة . وكأنه يريد أن يستغلَّ عبد الملك ليثور ضد قَيْس ، ويثأر منها لحروبها ضد تغلب حَليفته . فوثَب الجحَّاف مُغْضَباً ، وحشَد جموع قيس ، وأغارَ بها على تغلب وهى آمنة ، فأوقع بها وقعة البِشْر المعروفة التى قتل فيها نساءها ، وبقَرَ بطون حواملها[2] ، وفيها يقول الأخطل[3] :

لقد أوقَعَ الجَحَّاف بالبِشْرِ وَقْعَةً إلى اللهِ منها المُشْتَكَى والمُعَوَّلُ

---

(١) من المسيحيين الذين كانوا مقربين إلى عبد الملك يوحنا الدمشقى وكان يقبض بيديه على زمام الشئون المالية . انظر تاريخ العرب (مطول) لفيليب حتى ٢ /٣١٤ .

(٢) أغانى (طبع الساسى) ١١ /٥٥ .

(٣) الديوان ص ١٠ .

وهذه هي الحادثة الأولى التي تتصل بسفارة الأخطل لقومه لدى عبد الملك ، أما الحادثة الثانية فحادثة زُفَر بن الحارث زعيم قَيْس في الجزيرة ، فإن عبد الملك جذبه إليه ، وأجلسه معه على سريره تكريمًا له ، فغضبت تَغْلِب ، وثارت ثائرة سفيرها ، فدخل على عبد الملك مَغِيظًا مُحْنَقًا ، وقال له : أتُجْلِس هذا معك على السَّرير وهو القائل بالأمس :

وقد يَنْبُتُ المَرْعَى على دِمَنِ الثَّرَى ... وتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفوس كما هِيَا

فقبض عبد الملك رجله ، ودفع بها في صَدْرِ زُفَر ، فانقلب عن السرير ، ووقف يناشد عبد الملك العهد الذي أعطاه[١] .

والأخطل إذا كان فشل في سفارته الأولى ، فقد نجح في سفارته الثانية ، وقد عَبَّرت قصائده في عبد الملك عن هذه السفارة في أتمِّ معانيها وأجلاها ، إذ لم يَعُدْ شاعرًا يمدح البيت الأموي كما كان الشأن في عصر معاوية ويزيد ، بل أصبح سفيرًا لقومه بكل ما تدل عليه هذه الكلمة من معان .

ومن هنا كانت قصيدة الأخطل في عصر عبد الملك ، ونقصد قصيدة المديح ، شَرِكَةً بين عبد الملك وبين قوم الأخطل من تغلب ، فهو يمدحه ويتعرض لانتصاراته وهو يمدح قومه أو بعبارة أخرى يفخر بهم ، ويتعرض لما قدموه لعبد الملك . ونراه يخلص من ذلك إلى حروبهم مع قَيْس ، فيهجوها هجاءً مُرًّا . وبذلك تنوَّعت قصيدة المديح عند الأخطل في عصر سفارته لعبد الملك ، ففيها مديح وفخر وهجاء ، وعادة يقدِّم لذلك بالغزل ووصف رحلته بالصحراء ، وقد يتعرض للخمر ، فيصفها ويصف تأثيرها ومجالسها .

وخير قصيدة توضح ذلك قصيدة (خَفَّ القَطِينُ) فقد طارت شهرتها وطبقت الآفاق في عصر الأخطل وبعد عصر الأخطل . ونراه يبدؤها بوصف رحلة صاحبته في الصحراء على نحو ما صنع زهير في معلَّقته ، ويحاول التميز منه والتجديد ، فيستطرد إلى وصف الخمر ، واستمعْ إليه يقول[٢] :

خَفَّ القَطِينُ فراحوا منكَ أو بَكَرُوا ... وأزْعَجَتْهُم نَوًى[٣] في صَرْفِها غِيَرُ

---

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٨/٢٩٦ .

(٢) الديوان ص ٩٨ وانظر الأغاني (طبع دار الكتب) ١١/٦٤ .

(٣) نوى هنا : نية .

كأنى شاربٌ يومَ استُبِدَّ بهم ... من قرقفٍ ضمنتْها حمصُ أوجَدَرُ[١]
جادَتْ بها من ذوات القار مُترَعةٌ ... كلفاءُ يَنْحتُ عن خرطومها المدَرُ[٢]

فهو يستطرد على هذا النحو إلى وصف الخمر ، حتى إذا أرضى حاسّته الفنية من ذلك رجع إلى وصف رحلة صاحبته مع أهلها .

والخمر فى مدائح الأخطل لون يتميّز به من جرير والفرزدق ، فقد كان الإسلام يمنعهما أن يخوضا فى هذا الموضوع ، أما الأخطل فإن مسيحيته لم تقف حائلا بينه وبين ذلك ، وقد عُرِف بحبه للخمر ومعاقرته لها ، ويفيض كتاب الأغانى بروايات وأخبار تصوّر هذه الناحية عنده[٣]، ومن يرجع إلى ديوانه يجد الخمر تحتل جانبًا واضحًا فيه ، ومن طريف قوله فيها[٤] :

وكأسٍ مثل عينِ الديكِ صِرفٍ ... تُنَسِّى الشاربين لها العقُولا
إذا شَرِبَ الفتى منها ثلاثًا ... بغيرِ الماءِ حاوَلَ أن يَطُولا

ويقول فى وصف الشَّرْب وهم يتناولون الخمر[٥] :

رَاحُوا وهمْ يحسبون الأرضَ فى فُلُكٍ ... إن صُرِّعوا وقَتِ الراحاتُ والرُّكَبُ

والذى يتعقب الأخطل فى هذا الموضوع لا يشك فى أنه كان يحاول الإطراف فى الفكرة والصورة ، حتى تروقا سامعيه .

على كل حال تمتاز قصيدة (خف القطين) بأننا نجد فى أولها خمرًا ، وكأن الأخطل يريد بذلك أن يُجَدِّدَ وأن يَبُذَّ معاصريه من المسلمين أمثال الفرزدق وجرير الذين لا يستطيعون أن يعرضوا لها فى مدائح الخلفاء . وبجانب هذه الخمر نجد وصف رحلة صاحبته وأهلها فى الصحراء ، وهو يفصِّل ذلك ، وما يزال فى هذا التفصيل حتى ينتقل إلى مديح عبد الملك فيقول :

---

(١) القرقف : الخمر ، وجدر : بلد بالشام.
(٢) ذات القار : خابية الخمر المطلية بالقار ، والكلفاء : التى فى لونها كلف وهو السواد فى صفرة ، والمدر : الطين ، وينحت عن خرطومها : يفض عن فمها .
(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ٨/٢٨٩ ، ٨/٢٩٤ ، ٨/٢٩٩ ، ٨/٣١٧ ، ٩/١٢٣.
(٤) الديوان ص ٣٧١ وأغانى ٨/٢٩٦ .
(٥) أغانى (طبع دار الكتب) ٦/٨٨ .

إلى إمام تغادينا فواضله ... أظفره الله فليهنئ له الظفر
الخائض الغمر والميمون طائره ... خليفة الله يستسقى به المطر
وما الفرات إذا جاشت غواربه ... في حافتيه وفي أوساطه العشر(١)
وزعزعته رياح الصيف واضطربت ... فوق الجآجيء من آذيه غدر(٢)
مسحنفر من جبال الروم يستره ... منها أكافيف فيها دونه زور(٣)
يوما بأجود منه حين تسأله ... ولا بأجهر منه حين يجتهر
مفترش كافتراش الليث كلكله ... لوقعة كائن فيها له جزر(٤)
مقدم مائتي ألف لمنزلة ... ما إن رأى مثلهم جن ولا بشر
يغشى القناطر يبنيها ويهدمها ... مسوم فوقه الرايات والقتر(٥)
حتى يكون لهم بالطف ملحمة ... وبالثوية لم ينبض بها وتر(٦)
وتستبين لأقوام ضلالتهم ... ويستقيم الذي في خده صعر
ثم استقل بأثقال العراق وقد ... كانت له نقمة فيهم ومدخر
في نبعة من قريش يعصبون بها ... ما إن يوازى بأعلى نبتها الشجر(٧)
تعلو الهضاب وحلوا في أرومتها ... أهل الرباء وأهل الفخر إن فخروا(٨)
حشد على الحق عيافو الخنا أنف ... إذا ألمت بهم مكروهة صبروا
وإن تدجت على الآفاق مظلمة ... كان لهم مخرج منها ومعتصر(٩)
أعطاهم الله جدا ينصرون به ... لا جد إلا صغير بعد محتقر
شمس العداوة حتى يستقاد لهم ... وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا(١٠)

وواضح أن الأخطل يستهل مديحه عبد الملك بخلافته على المسلمين ، وإمامته لهم ، وهو في ذلك لا يفترق في شيء عن شعراء المسلمين حين يمدحون الخليفة .

---

(١) الغوارب : الأمواج ، والعشر : شجر .
(٢) زعزعته : حركته ، الجآجيء : جمع جؤجؤ وهو الصدر . والآذي : الموج ، وغدر : جمع غدير .
(٣) مسحنفر : سريع . أكافيف الجبل : حروفه الناتئة في أعراضه ، زور : ميل .
(٤) الكلكل : الصدر . الجزر : قطع اللحم تأكلها السباع .
(٥) مسوم : معلم . القتر : الغبار .
(٦) الطف : موضع بالقرب من الكوفة وكذلك الثوية . لم ينبض بها وتر : لم يرم بها نبل .
(٧) النبع : أجود الشجر ، يعصبون بها : يلتزمونها .
(٨) الرباء : الفضل والمنة .
(٩) تدجت : أظلمت ، معتصر : ملجأ .
(١٠) شمس : جمع شموس وهو الرجل العسر في عداوته .

وقد انتقل يمدح خُلُقَه ، فاستعار صورة قديمة نجدها عند النابغة فى مديحه للنعمان إذ يقول فى داليّته[١] :

وما الفُرَاتُ إذا هبَّ الرياحُ لـهُ ... تَمْرِى أَوَاذِيُّهُ العِبْرَيْنِ بالزَّبَدِ[٢]
يَمُدُّه كلُّ وادٍ مُتْرَعٍ لَجِبٍ ... فيهِ رُكَامٌ مِنَ اليَنْبُوتِ والخَضَدِ[٣]
يظلُّ من خوفه المَلَّاحُ مُعْتَصِمًا ... بالخَيْزُرَانَةِ بعد الأَيْنِ والنَّجَدِ[٤]
يومًا بأجودَ منــه سَيْبَ نافلةٍ ... ولا يَحُولُ عطاءُ اليومِ دونَ غَدِ

غير أن من يقرن هذه الصورة الجاهلية إلى صورة الأخطل الجديدة يلاحظ ما قلناه فى غير هذا الموضع من أن الشاعر كان ينظر فى الشعر الجاهلى ويستعير منه كثيرًا من الصور ، ولم يكن يقف فى ذلك عند حد التقليد ، بل كان يحاول التحوير فى الصور والتجديد فيها فنونًا من التحوير والتجديد . فهذا الأخطل يأخذ من النابغة صورته التى صوّر بها جُودَ النعمان ، إذ شبهه بالفُرَات حين يعلو فيضانه ويشتد ، فيجرف ما يلقاه فى طريقه من نبات وأشجار ، ولا يكتفى بذلك، بل يحاول أن يُحْدِث فى الصورة طرافة جديدة ، وهى طرافة يستمدها أولاً من التفصيل فى صورة فيضان الفرات، وتعقّبه وهو يسقط من جبال الرُّوم فى انحدار شديد تتدافع معه السيول والأمواج تدافعًا، ويستمدها ثانيًا من المقارنة نفسها، فالنابغة يكتفى فى المقارنة بين النعمان والفرات بالجود ، أما الأخطل فيمدُّ المقارنة إلى الجهارة والروعة ، فعبد الملك لا يشبه الفرات فقط فى جوده ، بل يشبهه أيضًا فى جسامته وروعته وفخامته . وهذا هو معنى أن الشاعر الأموى كان يطلب التجديد فى شعره .

واستَمِرَّ فى قراءة الأخطل فستجده يمدح عبد الملك قائدًا لجيوشه التى ساقها لحرب مصعب بن الزبير فى العراق ، وما كان من بنائه فى طريقه للقناطر وهدْمها، ويُصَوِّر كيف قضى على خصمه هناك . ثم ينتقل فيمدح عبد الملك فى أسرته ،

(١) المعلقات العشر ص ١٦٩ .
(٢) تمرى : تحلب ، الأواذى : الأمواج ، العبرين : الشاطئين .
(٣) الينبوت والخضد : ضربان من النبات .
(٤) الخيزرانة : سكان السفينة ، الأين : الإعياء ، النجد : العرق الذى يصيبه بسبب الإعياء .

فيسبغ عليها كل ما يعتز به العربى فى أرومته وبيته من أخلاق وصفات ، وهى أخلاق وصفات أعدّت ، فى رأيه ، بنى أمية ليسودوا الناس ، فهو يصفهم بالحلم والأنفة ومحبة الحق والصبر حين يُراد الصبر والبَطْش بالعدو حين يُرادُ البَطْش ، هذا إلى الرأى السديد الذى ينير المشاكل المظلمة ، والحظّ الذى حباهم الله به ، حظ الخلافة وملك الدولة العربية .

ولم نأت بكل الأبيات التى مدح بها الأخطل فى هذه القصيدة عبد الملك ، إنما أتينا بطائفة منها لنبيّن أن الأخطل فى مديحه لعبد الملك كان يحاول جاهداً أن يجدد المديح فى الشعر العربى تجديداً يتلاءم مع عصره ، وقد لمسنا هذا التجديد فى الصورة التى اقتبسها من النابغة . وليست المسألة فى رأينا مسألة صورة مفردة ، فإن من يتأمل هذا المديح يلاحظ أنه اختلف فى صورته العامة عن مديح الشعراء فى الجاهلية ، لسبب طبيعى ، هو أننا أصبحنا بإزاء موقف فى الحياة يختلف عما كان عليه الشأن قديماً ، فقد أصبح للعرب دولة أو بعبارة أدق خلافة ، وأصبح لهم جيش منظم . ومن هنا اختلف موقف الشاعر الأموى عن زميله الشاعر الجاهلى ، حتى لو كان مسيحياً كالأخطل ، فإننا نراه يمدح عبد الملك الخليفة ، ثم يمدح عبد الملك نفسه فى خلقه وشخصيته ، ثم يمدح عبد الملك القائد ، ثم يمدح عبد الملك سليل الأسرة الأموية .

وكثير من هذه الجوانب أوجدته الحياة العربية الجديدة ، فكان طبيعياً أن يغيّر الشعراء الممتازون فى قصيدة المديح على أضوائها أو فى ظلالها . وهو ليس تغييراً كُلّيّاً ، ولكنه على كل حال محاولة لتجديد وتنويع فى المديح واستغلال لكل ما يمكن ، حتى يأتى الشاعر بثناء طريف يستهوى الخليفة والناسَ من حوله . ومن غير شك نجح الأخْطَل فى قصيدته هذه حتى ليُرْوَى أنه حين أنشدها عبد الملك قال له : « وَيْحَكَ يا أخطل أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشْعر العرب ، فقال الأخطل : أكتفى بقول أمير المؤمنين ، فأمر عبد الملك له بجَفْنة كانت بين يديه ، فمُلِئَت دراهم ، وألقى عليه خِلَعاً ، وخرج به مَوْلًى لعبد الملك على الناس يقول : هذا شاعر أمير المؤمنين ، هذا أشعر العرب[1] » .

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ٢٨٧/٨ وما بعدها .

ويُعَدُّ عصر عبد الملك خيْرَ عصور الأخطل وأبهجها فى نفسه ، فقد خصَّه بعطفه ، واتخذه سميرًا وصديقًا ، فقرَّت عين الأخطل وقرت نفسه ، وصوَّر ذلك فى مدائح بديعة على نحو ما صوره فى (خَفَّ القَطِين) . وقد أخذ يردد ما كان يردده شعراء المسلمين من اختيار بنى أمية للأمة وأنهم أصلحها ، فقد اصطفاهم الله لهذه المهمة ، واستمعْ إليه يقول(١) :

وقد جعَل اللهُ الخلافةَ فيكمُ ... بأبْيَضَ لاعَارِى الخِوَان ولاجَدْبِ
ولكنْ رآه الله موضعَ حقِّها ... على رَغْم أعداءٍ وصَدَّادةٍ كُذْبِ

ويقول فى قصيدة ثانية(٢) :

أحْبَا الإلهُ لنا الإمامَ فإنَّهُ ... خَيْرُ البَرِيَّةِ ، للذُّنُوب غفُورُ
نورٌ أضاءَ لنا البلادَ وقد دَجَتْ ... ظُلَمٌ تكاد بها الهُدَاةُ تَجُورُ

أليس هذا كله جديدًا فى قصيدة المديح العربية ؟ والحق أن هذه القصيدة اختلفت فى هذا العصر بالقياس إلى صورتها القديمة لاختلاف الحياة العربية ، أو قل لتطورها وما حدث فيها من انقلاب سواء من حيث نظام الدولة أو من حيث تصوُّر الناس للخلافة وما ينبغى أن يكون عليه الخليفة . وكان الشاعر الأموى ما يزال يطلب التجديد والتغيير فى الإطار القديم لهذه القصيدة ، ولا شك فى أن الأخطل ، مع أنه من أكثر الشعراء محافظة فى هذا العصر ، استطاع أن يغير فى هذا الإطار ، ولا نقول إنه هدمه ، ولكن نقول إنه حاول أن يجدد فيه ، حتى يتلاءم مع العصر ، فعمد إلى التوليد فى الصور القديمة كما فى صورة الفُرَات . كما عمد إلى التنويع فى معانى المديح نفسه على نحو ما رأينا فى مديح عبد الملك .

ونحن لا نترك عصر عبد الملك إلى عصر ابنه الوليد حتى نشعر بأن بهجة الأخطل بحكم بنى أمية تكاد تَغيض فى نفسه ، فقد كان الوليد يتعصَّب ضد المسيحيين ، وقد حوَّل كنيسة يوحنا فى دمشق إلى الجامع الأموى المشهور ، وعذَّب أحدَ زعماء تغلب حين عرض عليه الإسلام فرفضه(٣) .وطبيعى أن يباعد

---

(١) الديوان ص ٢١ .
(٢) الديوان ص ٧٤ .
(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ١١/٢٨٢ .

ذلك بين الأخطل وبين القصر الأموى بدمشق . وأن يتقدمه فيه شعراء آخرون مثل عَدِىّ بن الرِّقاع العاملىّ الذى أصبح شاعر الوليد الرسمى[١]. وانزوى الأخطل وانزوت معه سفارته لتغلب .

ومن يرجع إلى مدائحه فى الوليد يجدها ضعيفه فاترة ، ليس فيها روح ولا ما يشبه الروح إنما فيها ألوان خفيفة من الحزن لإبعاد الوليد له عن القصر ولمعاملته القاسية للمسيحيين[٢] . على أن الأيام لم تَطُل بالأخطل ، إذ توفى أثناء السنوات الأولى من خلافة الوليد . يدل على ذلك من بعض الوجوه قلةُ الشعر الذى مدحه به . فإن ديوانه لا يَحْوِى من شعره فيه سوى أربع قصائد . ولو أن حياته طالت فى عهده لأكثرَ من مدحه .

وإذا تركنا الأخطل إلى صاحبيه الفرزدق وجرير وجدناهما يَنْبُتَان فى شجرة كبيرة ، هى شجرة تَميم ، وكانت تشغل هذه الشجرةُ الجزء الأكبر من شرقىّ الجزيرة ، إذ كانت أغصانها وفروعها تمتد من البَحْرين واليَمامة وفيافى الدَّهْنَاء جنوبًا إلى شواطئ الفُرات شمالا . وتتوغَّل على طول هذا الخط فى نَجْد . وجعلها ذلك تجاور قبائل كثيرة ، فقد كانت تجاور فى الجنوب عَبْدَ القيس وبنى حَنيفة ، وكانت تجاور فى الشمال أسَدًا وبَكْرًا وتَغْلِب ، بينما كانت تجاور فى الغرب قبائل كلها قَيْسِيَّة . وأهمها غَطَفان وباهِلَة .

وتَميم إلى أن تكون مجموعة قبائل أقربُ منها إلى أن تكون قبيلةً واحدة . فقد كانت تتفرع فروعًا كثيرة ، وكل فرع يُعَدُّ قبيلة قائمة بنفسها . وأحيانًا يتضخَّم الفرع فيصبح مجموعة من القبائل ، ومن أهم فروعها بنوالهُجَيم وبنو مازن وبنو مِنْقَر وبَلْعَنْبر وعُطَارد وبنو أنْف النَّاقَة ويَرْبُوع وَدارِم ، ومن يربوع غُدَانة ورِيَاح وثَعْلَبَة وكُلَيب قبيلة جرير ، ومن دَارِم بنو فُقَيم وبنو نَهْشَل وبنو مُجَاشع قوم الفرزدق .

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ٩/٣٠٧ . (٢) انظر الديوان ص ٢٣٢ .

وقد دخلت تميم فى الإسلام بعد فتح مكّة . ولما توفى الرسول صلى الله عليه وسلم ارتدّ أكثرها وتابعوا مُتَنَبِّئَةً هى سَجَاح . فذهب إليهم خالد بن الوليد بجموعه . واستطاع أن يردّهم إلى الإسلام . ولما توجّه خالد وتوجه المسلمون إلى الفتوح شاركت تميم فى حروب الفرس والروم . واستمرت على ذلك طوال عصر بنى أمية . وفى ذلك يقول الفرزدق[١] :

فتحنا بإذن الله كلَّ مدينةٍ   من الهِنْدِ أو بابٍ من الرُّوم مُغْلَقِ

وكانت تميم فى الجاهلية وثنية إلا نفرًا قليلا منها اتخذوا النصرانية دينهم .

وفى فَرْع من أهم فروعها هو فرع دارم وُلِدَ الفرزدق لأسرة أرستقراطية من بنى مجاشع ، إذ كان جَدُّه صَعْصَعَة أحد سادة العرب وأشرافها فى الجاهلية ، وذاع صيته لمكرُمة كان يقوم بها . وهى افتداء البنات من آبائهن بالمال حتى لا يَئِدُوهن . ولذلك لُقِّبَ بمحيي الموءودات[٢] . وفيه يقول الفرزدق[٣] :

أبى أحَدُ الغَيْثَيْنِ صَعْصَعَةُ الذى   متى تُخْلِفِ الجوزاءُ والنَّجْمُ يُمْطِرِ
أجارَ بناتِ الوائدِين ومَنْ يُجِرْ   على الفَقْرِ يعلمْ أنَّهُ غَيْرُ مُخْفَرِ

وكان أبوه غالب على مثال جَدِّه . فهو أحد سادة بنى تميم وأصحاب الشرف فى الإسلام . وكان كريمًا مفرطًا . ويُؤْثر عنه حادثان يدلان على أنه كان بحرًا فيّاضًا من بحار العرب . أما الحادث الأول فملخصه أن ثلاثة نَفَر من قبيلة كَلْب تراهنوا على أن يختاروا من تميم وبكْر أشخاصًا ليسألوهم . فأيّهم أعطى ولم يسألهم عن نسبهم مَنْ هُمْ كان أفضلهم . واختار كل منهم شخصًا . ووقع اختيارُهم على عُمَيْر بن السليك الشَّيْبَانى وطُلْبَة بن قَيْس بن عاصم المِنْقَرِى وغالب بن صَعْصَعَة المُجَاشِعِىّ . وذهبوا أولا إلى عُمَيْر ، فسألوه مائة ناقة . فسألهم مَنْ أنتم . فانصرفوا عنه إلى طلْبَة . فصنع صَنِيعَه ، فولّوْا وجوههم نحو غالب فأعطاهم ما سألوا ، ولم يسألهم مَنْ هُمْ . فساروا ليلة ، ثم ردّوا ما أخذوه . وأخذ صاحبُ غالب الرَّهْنَ[٤] . وفى ذلك يقول الفرزدق[٥] :

---

(١) ديوان الفرزدق ص ٥٧٧ .
(٢) أغانى (طبع الساسى) ١٩ / ٢ وما بعدها .
(٣) الديوان ص ٤٧٧ .
(٤) أغانى ١٩ / ٥ .
(٥) أغانى ١٩ / ٥ والديوان ص ٧٥٩ .

وإذ نادَبتْ كلبٌ على الناس أيُّهم أحقُّ بتاجِ الماجدِ المتكرِّمِ
على نفرٍ هم من نزارِ ذوي العلا وأهلِ الجراثيمِ التى لم تهدَّمِ
فلم يحِلْ عن أحسابهم غيرُ غالبٍ جرى بعنانَى كلِّ أبيضَ خِضرمِ

وأما الحادث الثانى فلخصه أن بنى يربوع وبنى دارم أصابتهم سنةٌ ، فانتجعوا بلاد كلب ، ولما حلوا هناك بادر غالب ، فعقر للناس ناقة ، وأطعمهم إياها ، فصنع صنيعه سُحيم بن وثيل اليربوعى ، فنحر ناقة للناس . فقيل لغالب : إنه ينافسك ، فقال : كلاَّ ! ولكنه امرؤ كريم ، وسأنظر ذلك ، ونحر اثنتين من نوقه ، فصنع سحيم صنعه ، فنحر عشرًا فنحر سحيم عشرًا ، حينئذ نحر إبله كلها ، ويقال كانت مائة ، ويقال كانت أربعمائة[١] ، وكان ذلك فى مكان يسمى صَوْءَر ، كرره الفرزدق فى شعره ، وافتخر به كثيرًا[٢] .

وكانت أم الفرزدق من ضبَّة من أسرة شريفة من أسرها ، وتسمى لَيْنة ، وهى أخت العلاء بن قرظة ، وكان شاعرًا ، ويُروَى أن الفرزدق كان يقول : أتانى الشعر من قِبل خالى[٣] . وكثير من فخر الفرزدق مقسَّم بين آبائه وأخواله ، وكذلك كثير من هجاء جرير له ، ومعنى ذلك أنه يتلفَّع بأردية الشرف من قِبَل آبائه وأخواله جميعًا .

ولسنا نعرف شيئًا واضحًا عن نشأة الفرزدق إلا ما يُؤثَر عنه من أنه قال : كنت أجيد الهجاء فى أيام عثمان[٤] . ولعل فى ذلك ما يؤكد أنه ولد فى خلافة عمر بن الخطاب . ويقال إن أباه غالبًا قدَّمه إلى على بن أبى طالب حين نزل البصرة ، وقال له إن ابنى هذا من شعراء مُضَر فأجابه : علِّمه القرآن[٥] واستمرت هذه الوصية فى نفس الفرزدق حتى كثُر شره ، فاعتزل الناس ، فيما يقال ، وقيَّد نفسه لحفظ آى الذكر الحكيم .

على كل حال نشأ الفرزدق وشبَّ فى هذه الأسرة الأرستقراطية التى تعتزُّ بنفسها

---

(١) أغانى ١٩/٥ والنقائض (طبع ليدن) ص ٤١٤ وما بعدها .
(٢) النقائض ص ٤١٣ — ٤١٨ .
(٣) الشعر والشعراء ص ٢٩٦ .
(٤) أغانى ١٩/٦ ، ١٩/٤٨ .
(٥) أغانى ١٩/٦ .

وبكرمها وجودها ، فطبعته بطوابعها ، وأنجبته على غِرارِها . ولعلّ مما يصوّر ذلك من بعض الوجوه ما يروى من أنه باع بعض إبلٍ له فى عهد زياد بن أبيه ، فلما أمْسك بالمال فى حِجْرِه عيَّره بعضُ الناس أنه يبيع إبلَهُ ويَكْتَنِزُ أثمانها ، وكان أبوه يَعْقِرُها ، فنثَر ثمن الإبل ، وألقى كل ما معه على الناس حتى ثيابه وعمامته[١] ، لينتسب فى بيته ويتشبه بآبائه !

وهذا كرم فيه تهوّرٌ وعدم مبالاة ، واحتذاء على أخلاق الجاهلية . ويتصل بذلك أنه كان يُجير الناس ، ويجير خاصة على قَبْر أبيه ، على نحو ما كانوا يصنعون فى الجاهلية[٢] . ولما توفى صديقه بِشْر بن مروان ، وكان واليًا على العراق لأخيه عبد الملك ، عقَرَ فرسَه على قبره[٣] ، وتلك سُنَّة جاهلية أيضًا .

ولعل فى هذا كله ما يدل على أن الفرزدق كان شديد الصلة بالأخلاق الجاهلية . ويدخل فى هذا الجانب عنده ما اشتهر به من فِسْق[٤] . وليس معنى ذلك أنه كان ينسلخ عن الإسلام جملة ، فقد مرّ بنا فى غير هذا الموضع أنه كان يتأثر بالإسلام ، وكان هذا التأثر يظهر فى صور مختلفه .

على أنه ينبغى أن لا نبالغ فى تأثره بالإسلام ، فقد كانت نفسه تتأثر فى عمق بالعادات والطباع الجاهلية . ومن هنا يأتى تهوّره فى كرمه واعتداده بآبائه وما كان لهم من أمجاد . وارجعْ إلى ديوانه فستجد أكثره يدخل فى باب الفخر بالآباء والأجداد والأحساب والأنساب فى عشيرته بل فى تَميم كلها ، حتى ليصبح بُوقها المدوى فى هذا العصر .

وديوان الفرزدق فى حقيقته ، يكاد يكون دفاعًا خالصًا عن قومه وتمجيدًا غاليًا لهم ، فهو أشبه ما يكون بخطبة أو خُطَب ، قيلت فى مديحهم والفخر بهم فخرًا لا تجفّ مادّته فى نفسه ، إذ كان يستمد من مَعين لا ينْضَب ، وكأنه يَغْرِف من بَحْرٍ تمدُّه أبْحُر، فهو لسان قبيلته ، وسُحُب الفخر بها ما تزال تنعقد شعرًا على هذا اللسان الرّطْب برائع القول وجزْله .

وأكبر الظن أننا نستطيع الآن أن نفهم كثرة المعارك اللسانية التى خاض

---

(١) طبرى ٢/٩٥ .
(٢) الديوان ص ٧٥٧ .
(٣) الديوان ص ٢٦٨ .
(٤) أغانى ١٩/١٩ وما بعدها .

الفرزدق غمارها ، فكل قبيلة تعدَّت طَوْرَها وخاصمت تميمًا خاصمها فى ديوانه . ومن هنا لم يكن اللونُ الصارخ فى ديوانه المديحَ كما كان شأن الأخطل .

وأيضًا فهناك ظاهرة مهمة فى شعره ، وهى أن الشخص الواحد نجد له عنده مديحًا كما نجد له هجاء . وتفسير ذلك أنه كان يُهاجى القبائل اليمنية والقيسية ومن يعبِّر عنهما من الشعراء ، فكان إذا تولَّى على العراق يَمَنِىٌّ مثل يزيد بن المهلَّب وخالد القَسْرى مدحه ، فإن لم يكن واليًا ، أو عُزِل ، هَجَاه . وكذلك كان شأنه مع الولاة من قيس مثل الحجَّاج وعمر بن هُبَيْرَةَ الفَزَارِىّ .

فمديح الفرزدق لولاة العراق من اليَمن وقَيْس لم يكن صادرًا عن نفسه ، بل كان منافقًا فيه وهذه ظاهرة نفسية مهمة فى ديوانه لم تكن موجودة فى الجاهلية ، لأن القبيلة لم تكن تَضْطَرُ إلى الخضوع لسلطان والٍ من خصومها أو منافسيها ، ولم يكن يضطر شعراؤها إلى هذا اللون من ألوان النفاق السياسى لأرباب السلطان .

وليس هذا فحسب هو الشيء الجديد ، الذى يلفتنا فى مديح الفرزدق لولاة العراق ، فنحن إذا أخذنا نتأمل فى مديحه وجدناه يختلف عن المديح القديم ، لسبب طبيعى ، هو أن الفرزدق مُسْلم ، يمدح وُلاة خليفة الله فى أرضه ، وهم كما يقومون على ولاية الناس يقضون بالعدل وينشرون الأمن ، يقومون أيضًا بمحاربة الثائرين . وكل ذلك ماثل فى ديوان الفرزدق . فالحياة العربية اختلفت ، واختلف معها شعر المديح الذى يصورّها . وفرق بين أن يمدح الشاعر الجاهلى سيد القبيلة ، وأن يمدح الشاعر الأموى والى العراق المُسْلم الذى يتصف بصفات دينية هى صفات الإسلام ، واستمعْ إلى الفرزدق يمدح الحجَّاج[١] :

لم أرَ كالحجَّاج عَوْنًا على التُّقَى ... ولا طالبًا يومًا طَرِيدَةَ تابلِ[٢]
بسيف به لله تَضْرِبُ مَنْ عَصَى ... على قَصَرِ[٣] الأعناقِ فوق الكواهل
شفيتَ من الدَّاء العِراقَ فلم تَدَعْ ... به ريبةٌ بعد اصطفاقِ الزلازل
وكنَّا بأرضٍ يا بن يوسفَ لم يكن ... يُبالى بها ما يَرْتَشِى كلُّ عامل
وما تُبْتَغَى الحاجاتُ عندك بالرُّشا ... ولا تُقْتَضَى إلاَّ بما فى الرَّسائل
وما الناسُ إلا فى سَبيلين، منهما ... سَبيلٌ لحقٍ أو سبيلٌ لباطل

---

(١) الديوان ص ٦٩٥ .
(٢) تابل : من التبل وهو الثأر .
(٣) القصر : أصل العنق .

ومن المؤكد أن هذه معان لم تكن تخطُر ببال المقصَّدين للمديح فى الجاهلية ، فلم يكونوا يمدحون بالتُّقَى ، ولا كانوا يصفون ممدوحيهم بأنهم سيوف الله ، ولا كانوا يذكرون الرِّشْوَة ، ولا الحق والباطل . وقد استرسل الفرزدق فى هذه القصيدة يصف كيف قضى الحجاج على ثورة اندلعت فى العراق . وكل ذلك جديد فى قصيدة المديح العربية .

وأظننا الآن نستطيع أن نفهم كيف أن هذه القصيدة تطوّرت عند الشعراء المسلمين أكثر مما تطوّرت عند المسيحيين من أمثال الأخطل ، لسبب طبيعى ، هو اعتداد الشاعر المسلم بالمِثالِيَّة الجديدة التى جاء بها دينه ، فوضعها نُصْبَ عينيه فى مديحه ، وأخذ يُثْبِتُ لممدوحه الصفات التى يريدها الإسلام . ومن هنا كانت قصيدة المديح عند الأخطل ، على الرغم من أنه نوَّع فيها وحاول أن يجددها ، أكثر محافظة واتصالاً بالقديم من قصيدة الفرزدق وغيره من الشعراء المسلمين فى هذا العصر .

ومهما يكن فإن قصيدة المديح لم تعد تجرى على النمط القديم أو الأسلوب القديم ، لأن الحياة اختلفت وانتقل العرب إلى أقاليم جديدة . وأسَّسوا دولة دينية ، تعتنق مثالية جديدة ، وأيضًا فإن انطباعات الحياة الخارجية اختلفت ، فلم يكن فى العصر الجاهلى ثائرون على القبيلة يحاربونها من ذات نفسها . أما فى هذا العصر فنحن بصدد حياة جديدة ، فيها أخلاقية تستمد من الإيمان بالله ورُسُله والعمل الصالح ، وفيها دولة يريد القائمون عليها أن يعمّ العدل وأن يَسْتَتِبَّ الأمن وأن تجتمع الأمة على كلمة واحدة ، ومع ذلك فهناك ثائرون وخوارج كثيرون . وليس هذا فحسب ، فإن والى العراق عليه ، بجانب حَرْبه للخوارج والثائرين ، أن يبعث بجيوشه إلى خراسان ، فالفتح الإسلامى لايزال قائمًا . وكل ذلك نجده ماثلا فى قصيدة الفرزدق حين يمدح الحجَّاج أو يمدح غيره من ولاة العراق .

وإذا تركنا هؤلاء الولاة إلى الخلفاء نريد أن نعرف كيف كان يمدحهم الفرزدق ، كان أول ما نلاحظه عليه أن ديوانه ليس فيه مديح لمعاوية ولا لابنه يزيد . وأغلب الظن أن الفرزدق لم يمدحهما ، لأنه كان يحمل نفسًا متمردة ، كانت تخضع

للسلطان القريب كسلطان الحجّاج فتَضْطَرُّ إلى مديحه ، أما السلطان البعيد فلم تكن تخضع له ولا كان يهمُّها فى شىء ، بل إننا نجد فى ديوانه قطعة يتهدّد فيها معاوية ويتوعّده حين حَبَسَ جائزة أعطاها لعمّه الحُتات ، إذ تُوُفِّى قبل مبارحته الشام ، فرأى معاوية أن يستردها[١] . وفى أخباره أن زياد بن أبيه اضْطُرَّ إلى مطاردته حين سمع بنثره الأموال التى باع بها إبِلَه فى المِرْبد وأيضًا فإنه رآه يهجو بنى فُقَيْم هجاء قبيحًا ، فطلبه ، وعلم الفرزدق ، ففرّ منه إلى سعيد بن العاص والى معاوية على المدينة ، وفى ذلك يقول[٢] :

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عنى زياداً　　مُغَلْغَلَةً يَخُبُّ بها البريدُ
بأنى قد فررتُ إلى سعيد　　ولا يُسْطَاع ما يَحْمِى سعيدُ
فررتُ إليه من لَيْثٍ هِزَبْرٍ　　تعادَى عن فَرِيسته الأسودُ

واستمرّ الفرزدق فى الحجاز منذ تعقّبه زياد سنة خمسين للهجرة[٣] حتى توفى سنة أربع وخمسين .

ولما تطورت الأمور بعد موت معاوية وابنه يزيد وأصبح العراق كله لابن الزبير وقف الفرزدق بعيداً عنه وعن شيعته . وحدث أن زوجه النَّوار لجأت إلى ابن الزبير فى مكة تريد أن يُسَرِّحها منه[٤] ، فتبعتها نفسه هناك حيث حاول أن يَقِف بينها وبين غايتها ، واتخذ حمزة زُلْفَى إلى أبيه عبد الله ، بينما اتخذت النوارُ خَوْلَةَ بنت منظور زوجه زُلْفَى إليه ، واستجاب عبد الله لزوجه ، فانقلب الفرزدق يفخر عليه ، ويُعَرِّض به من مثل قوله[٥] :

أما بَنوه فلم تُقْبَلْ شَفَاعتُهُمْ　　وشُفِّعَتْ بنتُ مَنْظُور بن زَبَّانَا
ليس الشفيعُ الذى يأتيك مُؤْتَزِراً　　مثلَ الشفيعِ الذى يأتيك عُرْيانَا

وقوله[٦] :

أعبدَ الله مَهْلاً عن أذاتى　　فإنى لا الضعيفُ ولا السَّؤُومُ

---

(١) الديوان ص ٥٦ .
(٢) أغانى ١٩/٣١ .
(٣) طبرى ٢/١٠٧ .
(٤) انظر قصتها فى الأغانى (طبع دار الكتب) ٩/٣٢٦ وما بعدها وأغانى (طبع الساسى) ١٩/٧ ما بعدها .
(٥) أغانى ٩/٣٢٧ .
(٦) أغانى ٩/٣٢٨ .

ولــكنى صَفَاةٌ لم تُؤَبَّس تَزِلُّ الطَّيْرُ عنها والعُصُومُ(١)

واشتعلت الحرب — فيما يظهر — بينه وبين ابن الزبير وولاته فى العراق وأنصاره من قَيْس هناك . يدل على ذلك أكبر الدلالة أنه بدأ حينئذ يدخل فى معارك الهجاء مع معاصره جرير الذى كان يقف فى صف ابن الزبير وولاته وقَيْسٍ الضالعةِ معه . وله قصيدة فيه وفى القُبَاع (الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة) والى البصرة لابن الزبير حينئذ ، يقول فيها للقباع(٢) :

وقبلكَ ما أعْيَيْتُ كاسِرَ عَيْنه زياداً فلم تَقْدِرْ علىَّ حبائلُهْ
فأقسمتُ لا آتيه سبعين حِجَّةً ولو كُسِرَتْ عُنْقُ القُباع وكاهلُه

وبَيِّنٌ أن هذا تمرُّد واضح على العهد الجديد عهد الزبيريين . ولعل ذلك هو الذى أتاح لانعقاد الصلة والصداقة بينه وبين بِشْر بن مروان حين أصبح والياً على العراق من قبل أخيه عبدالملك. وسرعان ما تُوُفِّيَ بِشْر وأقبل الحجَّاج القَيْسِى فاضطر إلى مديحه ليتَّقِيَ يده وشَرَّه ، وفى أثناء ذلك كان يمدح عبد الملك، ولكنه لم يتحوَّل إليه نهائيًّا بعامل ما فُطرت عليه نفسُه من تمرُّد .

ولعل من الطريف أن نلاحظ هنا أنه حاول أن يقف فى صَفِّ عبد العزيز ابن مروان حين أراد عبد الملك أن يخلَعَه من ولاية العهد ويولى ابنه الوليد مكانه، فى ديوانه قصيدة يمدحه بها ، أو بعبارة أدق يرثيه بها حين علم بوفاته(٣)، وكان حينئذ فى الشام . ولا نستطيع أن نفهم وجوده فى الشام، وهو لا يَفِدُ على عبد الملك ، إلا على أنه كان يريد مصر وزيارةَ عبد العزيز ، فعَجِل الموت إليه، وحال دون رغبة الفرزدق، ولا ريب فى أن رغبته هذه عرفت لعبد الملك وابنه الوليد ، فاستمرَّ بعيداً عن القَصر .

ولما حاول الوليد أن يخلع سليمان أخاه عن ولاية العهد ويجعلها لابنه عبد العزيز ودعا إلى ذلك الحجَّاجُ وأنصاره فى العراق ظلَّ الفرزدق بعيداً بسبب هذه النفسية المتمردة فيه ، بل لعله دعا إلى سليمان بعد وفاة الحجاج ، فقد توفى قبل الوليد .

وولى الأمرَ سليمان فقرَّ به منه ، وحينئذ يصبح الفرزدق شاعراً أمويًّا بالمعنى

(١) تؤبس : تكسر . العصوم : الظباء .
(٢) الديوان ص ٧٣٩ ، وانظر البيان ١/١٩٦ .
(٣) الديوان ص ٢٢٥ .

الدقيق لهذه الكلمة ، إذ نراه يَحْطِبُ فى حبْل الأمويين ويصبح داعية من دُعاتهم وقد سجَّل فى شعره هذا التحول الذى صار إليه فى عهد سليمان ، إذ يقول له من شعر[١] :

تركتُ بنى حرْبٍ وكانوا أئمَّةً ... ومَرْوانَ لا آتيه والمُتَخيَّرَا
أباك وقد كان الوليدُ أرادنى ... ليفعلَ خيْراً أو ليُؤْمنَ أوْجرا[٢]
فما كنتُ عن نفسى لأرْحلَ طائعًا ... إلى الشام حتى كنتَ أنت المُؤَمَّرا

فهو يعلن إلى سليمان أنه لم يَفِد على خليفة أموى قبله ، وأنه أصبح شاعره الذى يَلْهَجُ بذكره والثناء عليه ، بل الذى يدعو له ويتغنَّى باسمه ومآثره ، وقد ذهب يُشيد به وبآبائه على نحو ما نجد فى قوله[٣] :

ومن عبد شَمْس أنت سادِسُ سِتَّة ... خلائفَ كانوا منهمُ العَمُّ والأبُ
هداةٌ ومَهْديِّين عثمانُ منهمُ ... ومروانُ وابْنُ الأبْطَحين المطيَّبُ

وتقدم فى غير هذا الموضع أن كلمة المهدى لعبت عند الشيعة دوراً واسعًا ، والآن يَقْترضها الفرزدق وأمثاله من شعراء بنى أمية ليخلعوها على الخلفاء الأمويين ، وقد اقترضوا معها كثيراً من الصفات التى كان يقررها الشيعة فى أئمتهم . واستمعْ إلى الفرزدق يقول فى سليمان[٤] :

أنتَ الذى نعت الكتابُ لنا ... فى ناطقِ التَّوْراة والزُّبُرِ
كم كان من قَسٍّ يُخَبِّرُنا ... بخلافة المهدىِّ أو حَبْرِ
جعَل الإلهُ لنا خلافتَهُ ... بُرْءَ القُرُوحِ وعِصْمةَ الجَبْرِ
كم حلَّ عنا عَدْلُ سُنَّتِه ... من مَغْرَمٍ ثِقْلٍ ومن إصْرِ

وهذه نفس نغمة الشيعة فى وصف أئمتهم وما يُسْبِغون عليهم من صفات وعلامات قُدْسيَّة ، وإنه ليشيد باصطفاء الله سليمانَ لولاية المسلمين ، ويتعرَّض لحكمه وما امتاز به من عَدْل وإحياء للسنة النبوية .

---

(١) الديوان ص ٢٤٠ .
(٢) الأوجر : الخائف .
(٣) الديوان ص ٨٨ .
(٤) الديوان ص ٣٢٧ .

واستمر الفرزدق بعد سليمان يَفْزَع إلى خلفاء بنى أمية فى دمشق ، ولكن كانت تعاوده نزعة التمرُّد من حين إلى حين ، فنحن نجده فى عهد يزيد بن عبدالملك يُثَبِّط الناس عن الخروج لقتال يزيد بن المهلَّب حين ثار على بنى أمية[١] ومع ذلك نراه يمدح يزيد بن عبد الملك ، ويغلو فى مديحه على نحو ما نرى فى قوله[٢] :

ولو كان بَعْدَ المصطفى من عباده نَبِىٌّ لهمْ منهمْ لأمْرِ العزائمِ
لكنتَ الذى يختاره اللهُ بعْدَهُ لحَمْلِ الأمانات الثِّقَالِ العَظائمِ
ورثْتَ خليلَ الله كلَّ خِزانة وكلَّ كتاب بالنبُوَّة قائم
وحَبْلُكَ حَبْلُ اللهِ مَن يعْتَصِمْ به إذا نَالَهُ يأخذْ به حَبْلَ سالم

وأظن أنه قد اتضح الآن وضوحاً لا لَبْسَ فيه أن قصيدة المديح تطورت عند الفرزدق ودخلها جديد كثير بحكم أن الخلفاء كانوا يقومون على دعوة الإسلام ، وكان يُطْلَب فيهم أن يكونوا القُدْوَة المُثْلى للمسلم ، فانبرى الفرزدق يمدحهم من هذا الجانب كما انبرى يتحدث عن حكمهم الصالح ، وفى أثناء ذلك نراه يعرض للثائرين عليهم ، فيهجوهم .

وظل الفرزدق يردِّد هذه النغمات فى مديح يزيد ومديح هشام بن عبد الملك ، غير أن الأمور فسَدت بينه وبين الأخير ، إذ ولّى على العراق خالداً القَسْرى ، وكان مشهوراً بعصبيته الشديدة لليَمَنية على المُضَرِيَّة ، واضطهد تميماً وولاتَها فى خراسان ، وقتل نفراً منها ، فتعرض له الفرزدق بالهجاء ، وهجا معه سيده هشاماً وقال فيه بيته المشهور[٣] :

يقلِّبُ عَيْنًا لم تكن لخليفةٍ مشَوَّهَةً حَوْلاءَ بادٍ عيوبُها

وحبسه خالد ، فتحوَّل إلى مديحه ومديح سيده حتى يخلصاه من سجنه . وفى ديوانه مدائح كثيرة فى هشام ، ولكنها فاترة ، وليس فيها عاطفة . وما لبث أن وافاه القدر فى سنة أربع عشرة ومائة[٤] ، فاستراح من هذا التمرد الهائل الذى

---

(١) الديوان ص ٥١٦ .
(٢) الديوان ص ٨٢٩ .
(٣) الديوان ص ٥١ .
(٤) أغانى ١٩/ ٤٥ .

اشتملت عليه نفسه ، والذى لم يكن يستطيع أن يتخلص منه ، أو ينفك عنه ، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة .

ولم يكن الفرزدق الشاعرَ التميميَّ الفذَّ وحده فى هذا العصر ، فقد كان يزاحمه وينافسه فى إمارة الشعر بتميم والعراق عامة ابنُ عمه جرير الذى وُلِدَ باليمامة ثم ارتحل إلى البَصْرَة[1] . وكان جرير من كُلَيْب أحد غصون يَرْبُوع ، وهو غصن كانت أوراقه جافة وأليافه يابسة إلى حد ما ، فلم تكن له نُضْرَةُ غُصْن دارِم ومُجَاشع قوم الفرزدق ولا اخضرار أوراقه ، فمجاشع كانت فى الذروة العليا من تميم ، أما كليب فكانت فى السَّفْح والطبقة الدنيا ، ويعبِّر المؤرخون لجرير عن ذلك ، فيقولون إن قومه كانوا يرعون الغنم والحمير[2] فهم ليسوا أهل إبِلٍ وخيل . وكان جرير يعترف بذلك ، بل كان يفخر به ، فقد كان يرى نفسه زهرة جميلة نبتت فى تربة ليس من شأنها أن تُنْبِتَ الزهر . روى الرواة أن شخصاً سأله مَن أشعر الناس ؟ فقال له : قُمْ حتى أعرفك الجواب ، فأخذ بيده ، وجاء به إلى أبيه عطية ، وقد أخذ عَنْزاً له فاعتقلها ، وجعل يَمُصّ ضَرْعَها ، فصاح به : اخرج يا أبَتِ ، فخرج شيخ دَمِيم رَثُّ الهيئة ، وقد سال لبنُ العَنْزِ على لحيته ، فقال ألا ترى هذا ؟ قال نعم ، قال أوتعرفه ؟ قال لا ، قال هذا أبى ! أفتدرى لِمَ كان يشرب من ضَرْع العنز ؟ قال الرجل : لا ، فقال جرير : مخافة أن يُسْمَعَ صوتُ الحَلْبِ ، فيُطْلَب منه لبن[3] .

لم يكن عطية أبو جرير مثل غالب أبى الفرزدق فى سؤدده وشرفه ، إذ كان من طبقة أخرى . ومعنى ذلك أن جريراً لم يكن له من الشرف والسيادة ما يعتز به أمام سيادة الفرزدق وشرفه ، ولكن ذلك إن كان قد فاته فى النسب فإنه لم يفته فى الشعر والفن ، إذ استطاع أن يصل إلى مرتبة رفيعة فيهما لا تقل عن مرتبة الفرزدق صاحب الحسَب والنسب الرفيع .

وعلى كل حال ، فإن هذه النشأة المتواضعة لجرير ، جعلت نفسيته تخالف نفسية الفرزدق من وجوه كثيرة ، فلم يكن يعتز بآبائه وبقبيلته اعتزاز الفرزدق

---

(١) الشعر والشعراء ص ٢٨٦ .
(٢) انظر النقائض ص ٢٨٠ ، ٦٠٤ .
(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ٨/٤٩ .

بآبائه وقبيلته . ولعلّ ذلك ما هيّأه لأن يعيش حياته مجاهداً عن قيس ضد الأخطل وضد الفرزدق وتميم ، وقد ترجع أسباب ذلك إلى أموال كانت تَصُبُّ فى حِجْره من قَيْس لا إلى زُبَيْرِيّة قيس وزبيريته فحسب . يدل على ذلك أننا نجد الفرزدق يُعَيّره بما يُصيب من قيس فى نقائضه معه[1].

ومهما يكن السبب أو الأسباب فإننا لا نستطيع أن نفهم وقوفه فى صف قَيْس إلا على أنه لم يكن يحسُّ إحساس الفرزدق بقومه ، ولذلك رضى أن يقف فى صفوف خصومهم ، ولعل من الغريب أن نجده يمدح الأعاجم ، فيقول[2] :

ويَجْمَعُنَا والغُرَّ أولادَ سارةٍ أبٌ لا نبالى بعده من تعذَّرَا

ومديح الأعاجم فى هذا العصر كان يعدُّ كبيرة من الكبائر ، ولكنها نفسية جرير التى لم تكن تستشعر العصبية العربية ولا العصبية القبلية على نحو ما يستشعرهما الناس والشعراء فى عصره . ومن هنا لم يجد بأساً أن يعيش حياته يتغنّى باسم قَيْس ومآثرها فى الجاهلية والإسلام .

وليس هذا كل ما يلاحَظ على اختلاف نفسية الشاعرين ، فنحن نلاحظ أيضاً أن صلة الفرزدق بآبائه واعتداده بأرستقراطيته وأمجاده ، كل ذلك جعله لا يتأثر بالإسلام تأثراً عميقاً على نحو ما تأثّر جرير به ، فبينما يُعرف هو بفِسْقه يُعرف جرير بعفافه[3]. ويَرْوِى الرواة أنه رأى جريراً مُحْرِماً ، فقال والله لأفسدنّ عليه حَجَّه ، ثم جاءه مستقبلا له ، وقال :

وإنك لاقٍ بالمشاعر من مِنًى فَخَاراً فخبِّرنى بمن أنت فاخرُ

فقال جرير : لَبَّيْكَ اللهم لبيك ولم يُجِبْه[4]. وفى ذلك دلالة واضحة على اختلاف النفسيتين وأن الإسلام كان يتعمّق نفسية جرير بأكثر مما يتعمق نفسية الفرزدق .

كانت نفسية جرير هَيِّنَةً لَيِّنَةً ، فيها تواضع وفيها استكانة ، فلم يكن فيها هذا العنف الذى اشتملت عليه نفسية الفرزدق ولا هذا التمرد الذى صوّرناه ،

---

(١) النقائض ص ٣٧٧ .
(٢) أغانى ٨/٦٥ وما بعدها .
(٣) أغانى ٨/٥ .
(٤) البيان ٢/١٨١ .

بسبب تعمق الإسلام فيه من جهة ، وبسبب التواضع فى نشأته وأسرته من جهة ثانية . وإذا كان قد مدح الأعاجم وعاش يمدح قيسًا ، فأولى به أن يمدح أولى الأمر من بنى أمية .

وأولُ خليفة أموى وَفَدَ عليه يزيدُ بن معاوية ، فقد رُوى عنه أنه قال : « وفدت إلى يزيد وأنا شاب ، فاستؤذن لى فى جملة الشعراء . . . فدخلت ، وأنشدته ، وأخذت الجائزة معهم ، فكانت أولَ جائزة أخذتها من خليفة[1] » . وليس فى ديوان جرير شعرٌ فى مديح يزيد ، فإما أن يكون ما نظمه فيه ضاع ، أو تكون هذه الرواية غير صحيحة .

ولما تبعت العراقُ ابنَ الزبير رأيناه يَحْطِبُ فى حَبْل ولاته وعلى رأسهم القُبَاع ، كما أخذ يحطب فى حبل قَيْس مما جعله يصطدم بابن عمه الفرزدق كما أشرنا إلى ذلك مراراً . وانتطح الوَعْلان التميميان واستمرًا على ذلك إلى آخر أيامهما . وقد ظلّ فى نقائضه مع الفرزدق يذكر قتل قومه للزُّبَيْر بن العَوَّام ، فإن قاتله كان من مجاشع[2] . وربما كان من الأدلة على زبيريته فى هذه الفترة أن نجد بِشْر بن مروان حين يُوَلَّى على العراق بعد القضاء على ابن الزبير يبعده عنه ، ويدعو الشعراء إلى هجائه ، وكأنه يراه شاعر خصومه[3] .

وسرعان ما دخل جرير فيما دخل فيه أهل العراق ، فمدح بشراً[4] ، ولما ولى العراق الحجَّاج الثَّقَفِى القَيْسى قرَّبه منه حتى أصبح شاعرَه الرسمى غير مدافَع ولا منازَع ، وليس من ريب فى أن وقوفه مع قيس كان سببًا مهمًّا فى رِضَا الحجاج عليه وجَذْبه إليه .

ومن يقرأ شعره فى الحجاج يكبر من شخصيته ، والحق أن الحجاج شوّهه الرواة فى العصر العباسى إرضاء للعلويين والعباسيين جميعًا ، وطبعًا كانت فيه قسوة ولكنها كانت قسوة ضرورية ، وإن من يقرأ وصف جرير له ليعرف أنه كان يَتَّبع سياسة حازمة رشيدة ، واستمعْ إليه يقول فى مدحه[5] :

---

(١) أغانى ٨/٣٦ .
(٢) انظر الديوان (طبعة الصاوى) ص٤٧ ، ٣٣٨ .
(٣) أغانى ٨/١٨ وكذلك ٨/٣١٥ .
(٤) أنساب الأشراف للبلاذرى ٥/١٦٨ .
(٥) الديوان ص ٩٠ .

مَنْ سَدَّ مطلعَ النفاقِ عليكمُ ... أم مَنْ يصولُ كصولةِ الحجاجِ
إنَّ ابن يوسفَ فاعلموا وتيقنوا ... ماضي البصيرة واضحُ المنهاجِ
ماضٍ على الغمرات يُمضي همَّهُ ... والليلُ مختلفُ الطرائقِ داجي
منعَ الرُّشا وأراكمُ سُبلَ الهُدى ... واللصُّ نكَّلَه عن الإدلاجِ
ولقد كَسَرْتَ سِنانَ كلِّ منافقٍ ... ولقد منعْتَ حقائبَ الحُجَّاجِ

فهو يصفه بالشجاعة ونفاذ البصيرة ووضوح المنهج واختراق عزيمته للشدائد ، وانطلاقه فى الأمور . ويعطف على سياسته فيُبيِّنُ رشدها وما أفاءت على الناس ، فقد منع الرشوة وأمَّن الطرق من اللصوص ، وأصبح الحُجَّاج لا يخافون على حقائبهم نَهبًا ولا سَلْبًا . وبذلك قضى الحجاج على كل فساد فى العراق سواء كان ماديًّا أو معنويًّا ، فإن يده امتدت أيضًا إلى الفساد النفسى وإلى هذه الآفة التى تسمى النفاق ، فعالجتها فى أصحابها وقضت على أفاعيها وسمومها . وعلى هذه الشاكلة يصور جرير فى مدائحه للحجاج سياسة قويمة ، تقوم على اتباع سُبُل الهدى ، واستمعْ إليه يقول[1] :

وثِنْتَان فى الحجَّاج لا تَرْكُ ظالمٍ ... سَوِيًّا ولا عند المُراشاةِ نائلُ
قَدِمْتَ على أهل العراق ومنهمُ ... مخالفُ دينِ المسلمين وخاذلُ
فكنتَ لِمَنْ لا يُبْرِئُ الدِّينُ قَلْبَهُ ... شفاءً وخفَّ المُدْهِنُ المُتَثاقِلُ

وكان هذا الشعر يصل إلى أذن عبد الملك ، فكان يغبط الحجاج على شاعره ويتمنى أن لو صار إليه ، وعرف الحجاج ذلك ، فأرسل إليه به مع ابنه محمد ، ولما مثل بين يديه أنشده قصيدته التى يقول فيها بيته المشهور :

ألستُمْ خيرَ مَن رَكِبَ المطايا ... وأندى العالمين بُطُونَ راحِ

وأعجب به عبد الملك ، وأعطاه مائة ناقة وثمانية من الرِّعاء[2] ، وذكر ذلك جرير فى شعره[3] ، ومن حينئذ أصبح شاعر بنى أمية : عبد الملك وأبنائه ، يتشيع لهم ، ويدعو دعوتهم ، وينفخ مع أنصارهم فى بوقهم بكل ما أوتى من حَوْلٍ فنِّىٍّ وقوة .

(١) الديوان ص ٤٤١ .
(٢) أغانى ٨/٦٦ وما بعدها .
(٣) الديوان ص ٣٨٩ .

وأموية جرير من هذه الناحية أقوى من أموية الفرزدق ، فقد كان الفرزدق ، متمرداً ، ولم يتصل ببني أمية ولم يصبح شاعراً حقاً لهم إلا منذ سليمان . أما جرير فلم يكن متمرداً ، بل كان فيه ضراعة ، أعدته لِلَّحاق بعبد الملك منذ أول الأمر . ولم تكد تمسه يَدُ عبد الملك حتى تحول داعية له ولأبنائه فى العراق ، بل فى العالم الإسلامى كله ، فقد كان شعره يَذيع فى كل مكان ، وأخذ يُسْبِغ عليهم جميعاً كل ما أسبغه الشيعة على أئمتهم ، واستمعْ إليه يقول فى عبد الملك[1] :

لولا الخليفةُ والقرآنُ يَقْرَؤهُ ... ما قامَ للنَّاس أحكامٌ ولاجُمَعُ
أنت الأمينُ أمينُ الله لا سَرِفٌ ... فيما وَلِيتَ ولا هَيَّابَةٌ وَرِعُ[2]
أنت المباركُ يَهْدِى اللهُ شيعتَهُ ... إذا تفرقت الأهواءُ والشِّيَعُ
فكلُّ أمرٍ على يُمْنٍ أمَرْتَ به ... فينا مطاعٌ ومهما قُلْتَ يُسْتَمَعُ
يا آل مروانَ إنَّ الله فضَّلكمْ ... فَضْلاً عظيماً على مَنْ دِينُهُ البِدَعُ

فعبد الملك عمود الدين ، ولولاه ما انعقدت أحكام الإسلام ولا انعقدت صلواته ، فهو أمين الله فى أرضه وعلى عباده ، وهذا القرآن يقرؤه ، وهذه أوامره تستمد كلها منه ، وهى كلها أوامرُ يُمْن يأتيها الناس عن طاعة ورِضاً . ويقول جرير إن هذا فَضْلٌ عظيم اختصَّ به الله سبحانه آل مروان ، ورفعهم به درجات فوق الناس من خوارج وشيعة وغيرهما ممن يبتدعون البِدَع فى الدين ، فهم أهل الكتاب والسنَّة ، وخصومهم أهل البدعة والإلحاد . وهذه كلها عناصر دينية يمدح بها جرير عبدَ الملك ، وكأنه شيعِيٌّ يمدح إماماً شيعياً . واستمعْ إليه يقول فى عبد الملك من قصيدة أخرى[3] :

اللهُ طَوَّقَكَ الخلافة والهُدَى ... واللهُ ليس لما قضَى تبديلُ

وفى هذا البيت إشارة إلى فكرة المهدىّ من جهة وإشارة إلى مذهب الجَبْرِيَّة من جهة ثانية ، فكلُّ شيء بقضاء وقدر ، ولا سبيل إلى التبديل والتغيير فى أى شيء . وكان بنو أمية ، كما أسلفنا ، يذيعون هذا المبدأ ، حتى ينصرف الناس عن

---

(١) الديوان ص ٣٥٥ .
(٢) الورع هنا : الجبان .
(٣) الديوان ص ٤٧٤ .

التفكير فى خلافتهم ومحاولة تبديلها أو صَرْفها عنهم ، فالله جَلّ وعزّ شاء أن يكونوا هم خلفاء رسوله ، ولا رادّ لمشيئته ، ونجد هذه الفكرة منتشرة فى شعر جرير ومديحه لهم ، وكأنه يريد أن يقرّرها تقريراً . واستمعْ إليه يقول هذه الفكرة فى الوليد(١) :

إنّ الوليدَ هُوَ الإمامُ المصطفى ... بالنَّصْرِ هُزَّ لواؤهُ والمَغْنَمِ
ذو العرشِ قدَّر أن تكونَ خليفةً ... مُلّكْتَ فاعْلُ على المنابر واسْلَمِ

فهو يقول فى الوليد ما قاله فى أبيه من أن خلافته قَدَرٌ مقدور ، قدَّرهُ العلىُّ العظيم صاحب العرش والأمرِ الذى تصدر عنه أعمالنا فى الكون صدور الضوء عن الشمس ، فلا يمكن ردّها ، لأنها تصدر بقضاء نافذ محتوم .

وعلى هذه الشاكلة كان جرير يدعو فى مدائحه للأمويين إلى هذا الجبْر فى القضاء ، فخلافتهم قَدَرٌ مقدور منذ الأزل(٢) . وكذلك أوامرهم وسياستهم وكل ما يصدر عنهم ، حتى ما قد يكون من سفك دماء ؛ فأعمال الإنسان تُحكَمُ بقوة إلهية خارجة عن سلطانه ، وهى قوة أعطى اللهُ صَوْلجانها لبنى أمية ، فهم خلفاء الله ورسوله فى الأرض وعلى العباد يُنَفِّذون مشيئته وإراداته ، وليس للعباد إلا أن يرضوا عنهم ، ويَصْدَعوا بمشيئتهم، لأنها تستمد من مشيئة الله! .

ويكرّر جرير دائمًا هذه النغمة فى شعره كما يكرّر معها نغمة تفضيل الله لبنى أمية على الناس إذ اختارهم للخلافة ، وأيضًا يكرّر صفات الكرَم والعدالة والاقتداء بالكتَاب والسنّة ، فهم الهادون المهديون الذين يتبعون هم وأنصارُهم سبيلَ الرشاد . واستمعْ إليه يقول فى سليمان(٣) :

سليمانُ المباركُ قد علمتُمْ ... هُوَ المَهْدِىُّ قد وَضَح السَّبيلُ
أجرْتَ من المظالم كلَّ نَفْسٍ ... وأدَّيْتَ الذى عَهِدَ الرَّسُولُ
صَفَتْ لك بيعةٌ بثَباتِ عَهْدٍ ... فوزْنُ العَدْلِ أصبح لا يَميلُ

فهو يصفه بالعدل وردّ المظالم عن الناس كما يصفه بأنه مهدىٌّ مبارك ، مَن اتبعه سلك سبيل الهدى ، ومن تركه سلك طريق الضلال . وحاول سليمان أن يصرف

---

(١) الديوان ص ٤٩٢.
(٢) انظر الديوان ص ٢٧٥.
(٣) الديوان ص ٤٣٢ .

ولاية العهد إلى ابنه أيُّوب ، فتسرَّع جرير يقول فيه(١) :

إنَّ الإمامَ الذى تُرْجَى نَوَافلُهُ بعْدَ الإمامِ ولىُّ العَهْدِ أيُّوبُ
الله أعطاكُمُ من علمِهِ بكمُ حُكْمًا وما بعد حُكم الله تعقيبُ
أنت الخليفة للرَّحْمنِ يَعْرِفُه أهلُ الزَّبُورِوفى التَّوْرَاة مكتوبُ

وكان جرير يستجيب دائمًا لمثل هذه الرغبة حين يريد خليفة أن يصرف ولاية العهد دون أخيه لابنه ، صَنَع ذلك مع عبد الملك حين أراد أن يحوّل ولاية العهد من أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد ، وصنع ذلك مع الوليد حين أراد أن يترك سليمان إلى ابنه عبد العزيز ، وهو الآن يصنعه مع سليمان حين أراد أن يصرف ولاية العهد عن أخيه يزيد إلى ابنه أيوب ، وقد رأى أخيراً أن يصرفها إلى عمر بن عبد العزيز .

وهذا لا يهمنا بصدد ما نتحدث عنه من أن جريراً عُنِيَ فى مدائحه للأمويين بأن يدعو لهم على نحو ما يدعو شعراء الشيعة لأئمتهم . وشعره من هذه الناحية طريف طرافة ممتازة ، إذ يطلعنا على بعض الطرق التى كان يتخذها الأمويون ضدخصومهم ، فهم يسلكون إلى الدعوة لهم مذهبًا عقليًا عُرِف فى عصرهم ، هو مذهب الْجَبْرِيَّة ، وينادون هم وشعراؤهم ، وعلى رأسهم جرير ، فى الناس به . وليس هذا فحسب ، بل يصفون أنفسهم ، بل قُل يصفهم شعراؤهم بكل الصفات القدْسِيَّة التى يُسْبِغها الشيعة على أئمتهم . ولا فارق مطلقًا بين هذا الشعر الذى رويناه لجرير وشعر الكُمَيْت مثلاً فى الهاشميين . واستمعْ إلى جرير يقول فى يزيد بن عبد الملك(٢) :

زانَ المنابرَ واختالتْ بِمُنْتَجَبٍ مُثَبَّتٍ بكتاب اللهِ منصورِ

ولا يملُّ جرير تكرار هذه النغمة فى مدائحه لبنى أمية لأنها فى الواقع النظرية التى كانو يحكمون على أساسها ، وقد أمْعَن فى وصفهم بصفات جليلة كالعدل والهدى والأمانة والإمامة والسَّير على منهاج الكتاب والسنة . ومن حين إلى حين يعرض لخصومهم وأنهم ضلوا سواء السبيل ، ومن هنا انتشرت فى شعره المقارنة بين

---
(١) الديوان ص ٣٤ . (٢) الديوان ص ٢٥٦ .

الثائرين على الأمويين وقوم نوح وهود وثمود من مثل قوله فى يزيد بن المهلب حين ثارَ وقتله الأمويون[١] :

آلُ المهلَّبِ فرَّطوا فى دينهمْ　　　وطَغوْا كما فَعَلَتْ ثَمُودُ فباروا

فهو يعدُّهم خارجين على الدين مارقين منه لثورتهم على حفَظَته وحرَسَته، كما يعدهم طاغين باغين كما بَغَتْ ثمود وطغت ، فأذاقها الله عاقبة طغيانها جزاء وفاقًا .واقرأْ فى ديوان جرير ما استطعت فإنك ستجد دائمًا هذه الصورة فى مديح بنى أمية تُكَرَّر ألوانها وأصباغها سواء فى عبد الملك وأبنائه أو فى عمر بن عبد العزيز ، وفيه يقول[٢] :

أنتَ المباركُ والمهدِىَّ سيرَتُهُ　　　تَعْصِى الهوَى وتقومُ الليلَ بالسُّوَرِ

وآخِرُ خليفة اتصل به جرير هو هشام بن عبد الملك ، وعنده نجد نفس الصورة ، ونفس الصفات السامية ، من مثل قوله[٣] :

إلى المَهْدِىِّ نَفْزَعُ إن فَزِعْنا　　　ونَسْتَسْقِى بغُرَّتِهِ الغَماما
وحَبْلُ الله تَعْصِمُكم قُوَاهُ　　　فلانَخْشَى لعُرْوَتِهِ انْفِصاما
رَضِينا بالخليفةِ حين كنَّا　　　لهُ تَبَعًا وكان لنا إمَامَا
تباشرتِ البلادُ لكم بحُكْمٍ　　　أقامَ لنا الفَرَائضَ واسْتَقاما

فهشام هو المهدى الذى يفزع إليه الناس ، وقد أقامه الله عليهم ووكَل له شئونهم ، وهى وكالة قديمة بين الله جل وعز وآبائه ، فحَبْل الله تعصمهم قواه ، فلا يُخْشَى انتقاضه ولا انتكاثه . وهذا الإمام الجديد هشام يطبِّق فى حكمه حدود الشريعة الإسلامية ، وينشر العدل فى ربوع بلاده .

وفى كل مكان من شعر جرير نجد هذا الصوت فى مديح خلفاء بنى أمية ، بل فى مديح أبنائهم أيضًا على نحو ما رأينا فى مديحه لأيوب بن سليمان . وفى ديوانه قصيدة فى مديح معاوية بن هشام ، وهو يلهج فيها بنفس الأفكار والآراء ، وقد

(١) الديوان ص ٢١٩ .
(٢) الديوان ص ٢٧٥ .
(٣) الديوان ص ٥٠٥ .

تعرض فيها لثائر ثار على هشام ، قتله يوسف بن عمر الثقفي وبدّد جموعه وهو وال على اليمن . وذهب جرير يصور ذلك وكيف أن مَن يعصى الخليفة يتبعُ سبيل الضلال ، ويذيقه الله ومن معه نكال عمله بجنود لا يراهم الناس، يقاتلون مع جند الخليفة، وهم ملائكته الذين يسبحون بحمده ، ونراه يقول فى القصيدة[١] :

إنا حَمِدْنا الذى يَشْفى خَليفَتَهُ   من كل مُبْتَدعٍ فى الدين صَدّادِ

وهكذا خصوم بنى أمية دائمًا أهل بِدَع وضلال فى الدين ، أما بنو أمية وأتباعهم فهم أهلُ الهدى والسيرة القويمة ، لهم رِضْوان ربهم فى الدنيا والآخرة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح الآن أن جريراً كان متشيعًا لبنى أمية على نحو ما كان يتشيَّع كُثَيِّر لابن الحنفيَّة والكُمَيت لزيد بن على بن الحسين ، فهو شاعر الدولة، والدولة عنده نحلة لاتقل عن نحلة الشيعة وما يشبهها. ومن هنا ذهب يمجِّد بنى أمية تمجيد صاحب النحلة الذى يدافع عن عقيدة لا عن فكرة طارئة، وهى عقيدة كما رأينا تقوم على أن الله فضَّلهم وخصَّهم بالكرامة، إذ اصطفاهم خلفاء على الأمة الإسلامية وثبَّتهم بكتابه وقضائه ، وقد التزموا فرائضه وسنة رسوله ، فهم الأئمة الهادون المهديون الذين يجب على المسلمين طاعتهم ، ومَن عصاهم أو خرج عليهم يُعَدّ مبتدعًا فى الدين يصد عن سبيل الله إلى سبيل الشيطان .

وفى رأينا أن هذه الصورة التى يُثْبِتُ خطوطها وألوانها جرير فى ديوانه لخلفاء بنى أمية ينبغى أن ينظر فيها المؤرخون حين يؤرخون لهم ، وخاصة أن تاريخهم كُتِبَ فى العصر العباسى ، ودخل فيه تعصب شديد عليهم .

وشعر جرير من هذه الناحية يعد وثيقة تاريخية طريفة لمعرفة حقيقة هؤلاء الخلفاء ومدَى ما يُلْصِقه به خصومهم من نَقْد وتجريح . وينبغى أيضًا أن يحذر المؤرخ هذه الوثيقة الأموية لأن الشعر بُنِيَ على المبالغة ، ولكن على كل حال وجود هذه الوثيقة أو الوثائق بين يديه تجعله يسير فى بحثه على هُدًى . فمن كلام الأنصار والخصوم يستطيع أن يكتشف الحقيقة .

ونرى من ذلك كله أن جريراً كان شاعراً أمويًّا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ،

---

(١) الديوان ص ١٥٤ .

فهو صحيفتهم التى يذيعون فيها دعوتهم ، من إيمان بالقضاء النافذ ، ومن اصطفاء الله لهم ، ومن علمهم وسيرهم على المحجة والطريق الواضحة . وهو أيضاً لسان حالهم فى كل ما ينتوون من أمر ويصممون من عزم . وظل هذا دأبه حتى توفى ، وكانت وفاته بعد الفرزدق بستة أشهر .

وكان إلى ذلك يمدح ولاة العراق العامين والخاصين من مثل أصحاب الشرطة والقائمين على الخراج . وفى ديوانه مدائح كثيرة لعبد العزيز بن مروان وربما كان قد زاره فى مصر ، وفيه أيضاً مديح كثير للمهاجر بن عبد الله والى اليمامة ، وله يقول[1] :

لقد بَعَثَ المهاجرَ أهلُ عَدْلٍ　　بعَهْدٍ تَطْمَئِنُّ به القلوبُ

فهو يضمّن مديح الولاة مديح سادتهم من بنى أمية الذين استخلفوهم على الأمة . وقد نوّع كثيراً فى مدائحهم ، تارة يمدحهم بسيرتهم العادلة أو بكرمهم الفياض ، وتارة يمدحهم بشجاعتهم وحسن قيادتهم للجيوش وتأمينهم للطرق من اللصوص .

وشعر جرير من هذه الناحية خِصْب ، فهو يقتدر على مديح الولاة ومن يتصل بهم من القواد ، كما يقتدر على مديح الخلفاء والأمراء . ولا نرتاب فى أن كثيراً من المعانى التى مدح بها عبد الملك وأبناءه وعمر بن عبد العزيز والحجاج وأقرانه أصبحت كأنها نجوم قطبية ثابتة فى تاريخ قصيدة المديح العربية . إذ استغلها من بعده شعراء العصر العباسى من مثل بَشّار وأبى نُوَاس والبُحْتُرِى وأبى تمّام .

ولعل فى هذا كله ما يلفتنا إلى أن الجديد فى قصيدة المديح الإسلامية لم ينتظر إلى العصر العباسى حتى يوجد ، بل أخذ يوجد منذ هذا العصر الأموى عند جرير وأمثاله ، ممن ضمّنوا قصيدة المديح معانى إسلامية جديدة لم يكن يفكر فيها شاعر العصر الجاهلى ، لسبب بسيط ، وهو أنه كان وثنياً ، ولم يكن هناك دولة ، ولا خلافة ولا إمامة ، ولا كتاب ، ولا سنة ، ولا نحلة شيعية ، أو أموية .

---

(١) الديوان ص ٣٩ .

٢

تحول الهجاء عند الأخطل والفرزدق وجرير إلى نقائض

تحدثنا فى الفصل السابق عن اندلاع نار العصبيات بين القبائل فى عصر بنى أمية ، وأشرنا إلى أن الهجاء سَعَّر الشعراء والقبائل ، حتى ليوشك قارئ الشعر الأموى أن يظن أنه كان أهم موضوع يجذب إليه الشعراء وخاصة فى العراق، حيث تكتَّلت القبائل فى البصرة والكوفة ، وتقابلت القبائل اليَمَنيَّة مع القبائل المضَرية . ونظرت كل قبيلة فى نفسها وفيما كان بينها وبين غيرها قديمًا من أيام وحروب ، واستحال ذلك كله شعراً ، أو بعبارة أخرى استحال هجاء ، فكل شاعر لقبيلة يحاول جاهداً أن يرمى القبيلة القديمة ، التى تصادَف أن نافست قبيلته فى الجاهلية ، بسَهْم من سهام الهجاء ، أو قل بحجَر من حجارة القذف . ويستشيط شاعر القبيلة المعادية غضبًا ، فتراه يبحث هو الآخر عن سهم مُصْمٍ أو حجَر مُدْمٍ ، ليردَّ كَيْد صاحبه فى نحره أو فى رأسه .

والهجاء قديم فى الشعر العربى منذ الجاهلية . وقد أوجدته المنافسات القَبَلِيَّة على مياه الغُدْران والمراعى ، كما أوجدته الحروب المستمرة بين القبائل وبطونها وغصونها ، فكانوا يقتتلون ، وكانوا يتهاجون هجاء مرًّا . ولما جاء الإسلام ، وحاربت المدينةُ تحت لواء الرسول مكةَ ، تقاذف حسَّان بن ثابت وكَعْب ابن مالك وعبد الله بن رَوَاحة مع عبد الله بن الزِّبَعْرَى وأبى سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب وضرار بن الخطاب قصائدَ هجاء ، نظموها فى ظلال الأيام والحروب التى نشبت بين البلدتين مثل يوم بَدْر ويوم أحُد وغَزْوة الخَنْدَق .

وفى هذا كله ، سواء فى العصر الجاهلى أو فى أيام الرسول ، كان الهجاء فنًّا غير معقَّد ، إذ كان يقف الشاعر عند أفكار عامة من الجبن والقعود عن الثأر والبخل ونحو ذلك ، وقد أضاف شعراء الرسول وخاصة عبدَ الله بن رَواحة الحديثَ عن الإيمان والكفر ، وكذلك صنع أحياناً حسان بن ثابت .

ونحن نلاحظ فى كل هذه الصور من الهجاء التى سبقت عصر بنى أمية أنها

كانت فى أكثرها صوراً بسيطة ، فالشعراء لا يتقيدون دائمًا بأن يردوا على خصومهم بقصائد من نفس الوزن والقافية أو بعبارة أخرى من نفس الألحان والنغمات التى صاغ فيها الخصوم شعرهم وهجاءهم .

ثم هم لا يُقْبِلون على ذلك إقبال المحترف الذى يَهَبُ حياتَه لمهنةٍ يُمارِسُها ، إنما هم يقبلون على ذلك من حين إلى حين ، وفى الفترة بعد الفترة ، يعبرون عن رغبات قَبَلِيَّة ، أو رغبات لجماعة ، ولكنها رغبات مُتَقَيِّدة بحروب وأيام . وقد نجد هجاءً فرديًّا لا يتقيد بأيام ولا بحروب ، ولكن هذا لا يهمنا ، إنما يهمنا الهجاء المتبادَل الذى كان يأخذ شكل حَرْبٍ لسانية بين القبائل بجانب الحرب الحقيقية .

فهذا الهجاء المتبادَل لم ينظَّم ولم تُعْطِ الحياةُ الفرصةَ لتنظيمه ، إذ كانت القبائل متباعدة ، وخاصَّةً هذه التى تتقاتل ، وكان الشعراء لذلك لا تنتظم بينهم هذه الحرب اللسانيَّة . ومن هنا كنا لا نعثُر بهذا اللون من الشعر إلا قليلاً ، وعقب الأيام والحروب فوراءَ كلِّ يوم وكل حرب نجد قطعًا متبادلة بين الفئتين المتقاتلتين ، ثم تَزُمّ الألسنة كما تُزَمُّ السيوف ، وكأن شيئًا لم يحدث ، فقد هدأت ريح الحرب ، وهدأت معها العواصف اللسانية .

ومعنى ذلك أن العرب قبل عصر بنى أمية لم يعرفوا هجاء منظَّمًا ، يستمر يوميًّا استمراراً متصلاً ، على نحو ما يستمر فى عصرنا إخراج الصحف اليومية ، إنما عرفوا هجاء متقطِّعًا ، يظهر من حين إلى حين ، تبعًا لنشوب حروب وأيام بينهم .

فلما جاء العصر الأموى واستقرت القبائل فى مدينتى البصرة والكوفة وعادت العصبيات جَذَعَةً رأينا هذه القبائل تجتمع وتحتشد فى المِرْبَد وفى الكُناسة حول الشعراء ، يستمعون منهم إلى ما ينشدونه فى الهجاء ، وكأنهم وجدوا فى ذلك لَهْوًا لهم وتَسْلية .

حينئذ يتحول فن الهجاء من فن وقتى متقطِّع إلى فن دائم مستمر ، فالقبائل مصفوفة فى البلدتين ، والشعراء متراصُّون فى المِرْبَد والكُناسة ، والناس يتحلَّقون حولهم لاستماع ما يأتون به ، بعضهم من قبائلهم ، وبعضهم من قبائل أخرى ، جاءوا للفُرْجة والتسلية وقَطْع الفراغ الهائل الذى لم يكن يعرفه العربى فى الجاهلية

إلا قليلا ، إذ كان مشغولا بالبحث عما يُقيم به أوَده . أما اليوم فقد كفَته الفتوح والغزوات ودواوين الحكومة والدولة مئونة ذلك ، فذهب يبحث عن شيء يلهو به ، ويقطع أوقات فراغه ، وقام له شعراء البلدتين بما ابتغى ، إذ حوَّلا المِربَد والكُناسَة إلى ما يُشْبِه مَسْرَحين كبيرين ، يظهر عليهما يومياً شعراء مختلفون يلعبون لعبَة الهجاء اللطيفة التي كانت تروع العرب في جاهليتهم قديماً ، ولا تزال تروعهم حديثاً .

وفي العادة كان الجمهور يتحرك من شاعر إلى شاعر ، وخاصة حين يحاول شاعر أن يرد على مارمَى به شاعرٌ قبيلتَه ، فيشتد الحماس عند القبيلة وعند الجمهور المحتشد ، ويشتد الصفير والتصفيق ، ويتجمع الناس من كل مكان ، لينظروا ما هو صانعٌ بخصمه .

وأظن أننا لا نغلو إذا قلنا إن الهجاء تحول تحت تأثير هذا التطور في حياة العرب إلى فن جديد ، وهو فنٌ لا نشك في أن له بذوراً قديمة ، ولكنه أصبح الآن شيئاً آخر . أما من حيث الغاية ، فقد أصبح يُراد به إلى اللهو لا إلى الجِدّ كما كان الشأن في القديم ، وأما من حيث الصورة فقد أخذ يختلف وجوها كثيرة من الاختلاف إذ أصبح ينشد يومياً ، وأصبح الشعراء يحترفونه احترافاً .

وهذا أهم فرق بين الهجاء في القديم وفي الحديث أو في العصر الجاهلي والعصر الأموي ، فالشاعر الجاهلي لم يكن يهجو ليضحك جمهوراً ، و ليقطع له أوقاتَ فراغه ، ولم يكن يهجو أمام خصومه مباشرة ، ولم يكن يَحْتَرِف الهجاء على هذا النحو الذي نجده في عصر بني أمية .

وخيرُ مثلٍ يُصَوِّرُ ذلك جريرٌ وصاحباه الأخطل والفرزدق ، فإن الهجاء تحول عندهم كما نقول الآن إلى حرفة وخاصة بين الأول والأخير ، فإنهما كانا يعيشان في البصرة ، وكانا يختلفان إلى المربد ، فينشدان الناس هناك أهاجيهما ، ويستثيران في أثناء ذلك حماس الجماهير ، وما يزال كل منهما يحاول أن يبلغ من استثارتها كل مبلغ .

فالغرض الأساسي من الهجاء تحول إلى الرغبة في إعجاب الجماهير من الخصوم وغير الخصوم . وهذا معنى ما نقوله من أن الهجاء أصبح حرفة أو مهنة ، فالشاعر

يريد به أن يتفوق على خصمه عند الجماهير المحتشدة فى المِرْبَد أو فى الكناسة ، ولم يعد كل همه أن يرضى قبيلته ، بل لعله لم يعد يفكر فيها ، إلا باعتبارها جزءاً فى الجماهير المتجمعة من حوله .

وحقًّا أن الشاعر كان يتكلم باسم قبيلته ، وكان يدافع عنها ، وكانت تتحمَّس له ، وتحتشد حوله ، ولكنها لم تكن كل غايته من هجائه ، إنما كانت كل غايته أن ينال رضا الجمهور المجتمع فى المسرح ، وأن يثبت تفوقه على خصمه ، وأنه أرسخ منه قدماً فى فنّ الهجاء والشعر عامة .

وأظننا نستطيع الآن أن نفهم كيف أن جريراً لم يقف فى المِرْبَد دائماً للدفاع عن قومه من تميم ، إنما وقف فى الغالب للدفاع عن قيس ضد الفرزدق شاعر تميم وضد الأخطل شاعر تغلب . فهذا الموقف لا يمكن حله إلا على أساس أن نظرية الهجاء القديمة أصابها تحول واسع ، فإذا بنا نجد شاعراً غير قَيْسى يقف حياته للدفاع عن قيس ، ويؤلف مع صاحبيه ديوانين ضخمين يسميان (نقائض جرير والأخطل) و (نقائض جرير والفرزدق) .

وليس عندنا قبل هؤلاء الشعراء الثلاثة دواوين للهجاء بهذا المعنى الذى نجده عندهم ، لأن الهجاء لم يصبح فنًّا مستمرا يحترفه الشاعر احترافًا ، ويَرْصُد نفسه رَصْداً لمسرح كبير يَؤُمُّه يوميًّا ، ويؤُمُّه الناس ، ليستمعوا إلى ما أحدث من طرائف جديدة .

من أجل ذلك كنا نزعم أن الهجاء تحول عند الشعراء الثلاثة إلى فن جديد أو إلى لون جديد ، ولا بأس أن نسمى هذا اللون باسم النقائض ، وهو نفس الاسم الذى اختاره له القدماء . إلا أننا نرى أن نصطلح به على ما كان من هجائهم خاصة .

أما الهجاء الذى سبقهم فلا نسميه نقائض ، إلا على ضرب من التَّجَوُّز ، أو على أنه كان بُذُوراً لهذا اللون الجديد الذى نقرؤه عند الأخطل والفرزدق وجرير. وليس هذا كل ما يلاحَظ فى هجائهم بالقياس إلى الهجاء القديم ، فنحن نلاحظ أيضًا أن الهجاء خرج من المعانى الأولية البسيطة إلى معان معقَّدة عقَّدتها الظروف السياسية المعاصرة ، كما عقَّدتها الظروف العقلية والدينية الجديدة ، بحيث أصبحت

النقائض وكأنها مناظرات أدبية طريفة .

ويمكن ملاحظة هذا التطور فى نقائض جرير الأولى مع غَسَّان والبَعِيث . فهى فى أكثرها أراجيز ومقطوعات ، ثم هى ضحلة المعانى ، فليس فيها عمق ، وليس فيها تعقيد ، وليس فيها الأيام الكثيرة التى نجدها فيما بعد عند جرير ، وليس فيها اتصال بظروف الحياة السياسية الجديدة ، ولا بالظروف الدينية والعقلية ، إنما فيها القُرْبُ والبساطة . وهى فى ذلك تشبه الأهاجىَ القديمة . فإذا تقدمنا بعد ذلك وجدنا جريراً يسوق نقائض من طراز جديد ، فيها دفاعٌ عن قيس ، وفيها اتصال عميق بماضى القبائل العربية وأمجادها ، وفيها اتصال عميق بالظروف السياسية المعاصرة ، وليس ذلك فحسب ، بل أيضا فيها تعبير الشعر عن كل ما حصل عليه العرب حينئذ من ذخائر عقلية وروحية .

ومن أجل ذلك كنا نزعم أن جريراً وصاحبيه حولوا صورة الهجاء القديمة إلى صورة جديدة ، هى صورة النقائض كما سماها لهم القدماء . وسنحاول أن نكشف عن ذلك كشفاً واضحاً فيما يلى من حديثنا .

٣

نقائض جرير والأخطل

الحوادث هى التى وضعت جَرِيراً هذا الوضع من الأخطل فإنه أخذ صَفَّ قَيْس ، كما أسلفنا ، فى أثناء حكم الزبَيْرِيِّين للعراق ، فتعرَّض له الأخطل يهجوه ويهجو قيساً معه . ومعروف أن قَيْساً كانت تناصر ابن الزبير وتؤازره ضد الأمويين . ونجَمَ عن ذلك أن نشَبت طائفة من الحروب بينها وبين أنصار بنى أمية فى الشام من تَغْلِب ، وكَلْب وأخواتها من القبائل اليمنية هناك . وما لبثت كفة اليمنيين وتَغْلِب أن رجَحت ، فإن قيساً اندحرت فى موقعة مَرْج رَاهِط .

فالظروف السياسية فى هذا العصر وضعت قَيساً فى صفوف المعارضة من بنى أمية كما وضعت تَغْلِب فى صفوف أنصارهم . ومعنى ذلك أن قيساً وتغلب كانتا

على طرفى نقيض فى السياسة ، ولم يكن هذا كل ما بينهما ، فإن قيساً كانت تنزل قبل الإسلام فى نجد وبوادى الحجاز وتمتد شرقاً حتى تشرف على منازل تميم وبكر ، وكانت تغلب تنزل فى الموصل وتمتد بطونها وعشائرها من الحيرة وشواطئ الفرات إلى بادية الشام . فلما جاء الإسلام خرجت قبائل قيس للجهاد والفتح ، فنزل كثير منها فى الشام وامتدت بعض غصونها وفروعها إلى منازل تغلب فى الموصل وحوض الفرات .

فكان بين قيس وتغلب تزاحمٌ فى المنازل وتضاربٌ على العيش والمكان ، ومعنى ذلك أنهما كانتا على طرفى نقيض فى مصالحهما الاقتصادية كما كانتا على طرفى نقيض فى مصالحهما السياسية ، وهذا الجانب الاقتصادى هو الذى جعل تغلب تنتهز الفرصة فى موقعة مرج راهط ، وتنضم إلى القبائل اليمنية ضد قيس ، حتى تُخْرِجَها من بلادها إذا دارَتْ عليها الدوائر .

ودارت الدوائر على قيس فى هذه الموقعة ، وعانت من جرّائها كارثة شديدة ، لم تتعوّدْها من قبل ، وقد رجعت إلى نفسها ، فرأت أن تُنَظِّم غارات ومواقع للانتقام من تغلب وموقفها فى موقعة مرج راهط ، فتجمعت جماهيرها فى الموصل تحت قيادة زعيمها زُفَر بن الحارث الكلابى وإمرة عُمَيْر بن الحُباب السُّلَمى ، وأخذت تُغير على كَلْب من جهة وتَغْلِب من جهة ثانية . وصَلِيَت تغلب نيران هذه الغارات التى كان ينظمها عُمَيْر ، فتارة يهجم عليها فى الخابور ، وتارة بجانب الثرثار . وقد أفاض الجزء الخامس من كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى فى الحديث عن هذه الغارات وأيامها ، من مثل يوم الحَشَّاك ، ويوم البِشْر ، كما أفاض فى الأشعار التى نُظِمَت فيها .

وعلى نحو ما استلّ رجال قيس وتغلب السيوف فى هذه المعارك الحربية استلّ شعراؤهما قصائد الهجاء فى معارك لسانية ، فكان الأخطل وغيره من شعراء تغلب ينظمون أهاجى مقذعة فى قيس ، وكان شعراء قيس يردون عليهم بأشعار يرمون بها فى نحورهم . وكان فى العراق شاعرٌ ناصَرَ قيساً بحكم لُعْبَة النقائض الجديدة ، ولم يكن قيسياً ، وإنما كان تميمياً ، وهو جرير ، فكان طبيعياً أن يصطدم الأخطل شاعر تغلب به ، وإن كان الرواة يعللون ذلك بعلل شخصية ، فابن سلّام يَرْوِى

أنه « لما بلغ الأخطل تهاجى جرير والفرزدق قال لابنه مالك : انْحَدِرْ إلى العراق حتى تسمع منهما ، وتأتيني بخبرهما ، فلقيهما ، فاستمع ، ثم أتى أباه ، فقال : جرير يَغْرِف من بحر ، والفرزدق يَنْحَتُ من صَخْر ، فقال الأخطل : فجرير أشعرهما ، ثم قال :

إنى قَضَيْتُ قضاءً غيرَ ذى جَنَفٍ ... لمَّا سمعتُ ولمَّا جاءنى الخبَرُ
أنَّ الفرزدق قد شالتْ نَعامتُهُ ... وعضّه حيّةٌ من قومه ذكَرُ

ثم قدم الأخطل الكوفة على بشر بن مروان فبعث إليه محمد بن عُمَيْر بن عُطَارد (وكان صهراً للفرزدق) بدراهم وحُمْلان وكُسْوة وخمر ، ويقال إن الذى بعث إليه بهذا شَبَّة بن عِقال المجاشعى ، وقال للأخطل : فَضِّلْ شاعرنا عليه وسُبَّه ، فقال الأخطل :

اخْسَأْ إليك كليبُ إن مُجاشعًا ... وأبا الفوارس نَهْشَلاً أخَوانِ
قومٌ إذا خطرَتْ عليك قُرُومُهُم ... جعلوك بين كَلاكلٍ وجِرَانِ (١)
وإذا وضعْتَ أباكَ فى ميزانهمْ ... رَجَحُوا وشَالَ أبوكَ فى الميزانِ

فقال جرير :

ياذا العَبَاية إنَّ بِشْراً قد قَضَى ... أن لا تجوزَ حكومةُ النَّشْوَانِ »(٢)

ويروى ابن سلام فى موضع آخر « أن الفرزدق والأخطل وجريراً اجتمعوا عند بشر بن مروان ، وكان يُغْرِى بين الشعراء ، فقال للأخطل : احكمْ بين الفرزدق وجرير ، فقال : أعْفِنِى أيها الأمير ، فقال : احكم بينهما ، فاستعفى بجهده ، فأبى إلا أن يقول ، فقال : هذا حكم مشئوم ، الفرزدق يَنْحَت من صخر وجرير يَغْرِف من بحر . فلم يَرْضَ بذلك جرير ، وكان سببَ الهجاء بينهما ، فقال جرير :

---

(١) القروم : الفحول . الكلاكل : الصدور : الجران : صفحة العنق .

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام (طبع أوربا) ص ١٠٧ وانظر نقائض جرير والفرزدق ص ٨٧١ وما بعدها .

ياذا العَبَاية إن بشراً قد قضى أن لاتجوزَ حكومةُ النَّشْوان
فدَعوا الحكومة لستمُ من أهلها إن الحكومةَ فى بنى شيبان

ثم استطارا فى الهجاء »[1].

والروايتان جميعًا تعودان بنشوب معارك الهجاء أو مناظرات الهجاء بين الأخطل وجرير إلى هذا الحكم الذى حكم به الأخطل على جرير منحازاً إلى الفرزدق بحضرة بِشْر بن مروان أو فى أثناء زيارته له . غير أننا نزعم أن هذه النقائض أنما استطارت بين الشاعرين بحكم موقف جرير فى صَفٍّ قيس . وقد تكون حادثة بشر صحيحة ، ولكن ينبغى أن لا نجعلها كل الأسباب فى اندفاع الشاعرين إلى التهاجى ، فوراءها سبب أعمق فى موقف الشاعرين لهذا العصر من الخصومات القبلية ، إذ كان الأخطل لسان قومه تغلب ، بينما اتخذت قيس فى المِرْبَد جريراً لسانها ، فكان من الضرورى أن يصطدم اللسانان المعبِّران عن الطرفين ، سواء هاج ذلك بشر فى نفس الأخطل أو لم يَهِجْه . وإن نفس وقوف بشر مع الفرزدق ضد جرير ، إنما يرجع إلى موقف جرير مع الزبيريين ومع القيسيين خصوم بنى أمية . ومهما يكن فقد اصطدم شاعر تغلب بشاعر قيس فدخلا فى هذه المعارك التى أنتجت لنا هذه النقائض الطريفة بين الأخطل التغلبى المسيحى وبين جرير القيسىِّ الهوَى المسلم .

وإذا أخذنا ننظر إلى هذه النقائض التى بقيت بين أيدينا من عمل الشاعرين والتى جمعها أبو تمام لاحظنا توًّا أنها قصائد ضخمة ، استنفدت جهداً غير قليل من الشاعرين ، وهى من حيث الشكل تتألف من قصيدتين قصيدتين ، فالوحدة فى ديوان النقائض سواء بين الأخطل وجرير أو بين الفرزدق وجرير قصيدتان . وفى العادة ينظم أحد الشاعرين المتناقضين قصيدة من وزن خاص وقافية خاصة ، ثم يأتى زميله فينقض القصيدة بقصيدة أخرى من نفس الوزن والقافية ، وكأنه يريد أن يثبت تفوُّقه عليه من حيث الموسيقى والصياغة الفنية بجانب تفوّقه عليه من حيث الفخر والهجاء . ونراه فى أثناء صُنْعِه لنقيضته يتعرض لمعانى زميله فيردها أو يردّ عليها معنى معنى ، يحاول أن ينقضها ، وأن يجعلها أنكاثًا من بعد قوة .

---

(١) ابن سلام ص ١١٠ والأغانى ٨/٣١٥

وليس هذا كل ما يلاحَظ على فن النقيضة لهذا العصر ، فنحن نلاحظ أيضاً أن الشاعر فى النقيضة لا يعبر قبل كل شىء عن نفسه كما فى بعض القصائد القديمة (انظر المعلقات مثلاً) وإنما يعبرعن قبيلة يتحدث باسمها ، يذكر مفاخرها وأمجادها ثم يعدّد مساوئ خصومها ومثالبهم .

وأيضاً فإننا نلاحظ أن القبيلة كانت تتخذ شاعراً يعبّر عنها ، وليس من الضرورى أن يكون منها كما هو شأن جرير بالقياس إلى قيس ، ولذلك كنا نزعم أن نقائض جرير والأخطل فن جديد لم يسبق إليه الشعراء فى الجاهلية ، إذ كان كل شاعر يتحدث باسم قبيلته ، أما فى هذا العصر فإن الشاعر قد يتحدث باسم قبيلة أخرى ، ولا مانع مطلقاً من أن يضطره ذلك إلى أن يقف ضد قومه وقبيلته نفسها كما حدث بين جرير والفرزدق مما سنعرض له فيما بعد . وبذلك يصبح الشاعر وكأنه صحيفة مؤجَّرة لهذه القبيلة

ويشعر كل من يستعرض الحركات الدينية والعقلية وما كان من مناظرات بين العلماء فى هذا العصر أن النقائض ، سواء نقائض جرير والأخطل أو نقائض جرير والفرزدق ، إنما كانت قبل كل شىء صدًى لهذه المناظرات التى مسَّت كل جانب فى الحياة الدينية والعقلية ، على نحو ما تحدثنا عن ذلك فى غير هذا الموضع .

وكأن جريراً حينما انساق فى مناظراته مع الأخطل أو مع الفرزدق إنما كان يقلد هؤلاء العلماء حين يأخذ واحد منهم فى الدفاع عن فكرة معينة كفكرة الجبر أو القَدَر أو الإرْجَاء ، وكفكرة التَّشَيُّع أو الأمَوِيَّة أو الزُّبَيْرية ، وكهذه المناقشات التى لا تنتهى فى مسائل الفقه والتشريع ، مما كان يراه جرير كل يوم فى المسجد الجامع بالبصرة ، وفى المِرْبد وفى الطرقات ، وفى مجالس الناس . ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم كيف أن جريراً التميمى كان يأخذ صف قيس المخاصمة لقبيلته ، وكيف كان يعيش للنضال عنها ، فقد تحولت المسألة عنده إلى فكرة أو ما يشبه العقيدة ، أو قل إنه كان يُسلى نفسه والجمهور من حوله بهذه المحاورة .

فالجوُّ الذى ألفت فيه نقائض جرير والأخطل وكذلك نقائض جرير والفرزدق كان جوًّا جديداً فيه مناظرات العلماء ومناقشاتهم ومحاوراتهم ، وفيه هذا الوضع غير المألوف ، وهو أن شاعراً عربيًّا يدافع عن قبيلة أخرى غير قبيلته ، ثم فيه هذا

المسرح الكبير مسرح المِربَد الذى يتجمّع فيه سكان البصرة للفُرْجَة على لُعْبة النقائض . وحقًّا وُجدت أهاج بين الشعراء فى العصر الجاهلى وفى أوائل الإسلام ولكنها لم تؤلّف فى هذا الجوّ العقلى الجديد ، ولم يكن الشاعر يأخذ فيها صفًّا آخر غير قبيلته . ومن هنا كنا نَفْصِل هذه الأهاجى الجديدة باسمها الذى وضعه الرواة لها وهو اسم النقائض ، ونزعم أن هذه النقائض جديدة فى تاريخ الشعر العربى فقد تحول الهجاء القديم إلى مناظرات من نوع يوشك أن يتعقّد، وأن يختلف فى كثير من جوانبه عن صورته القديمة ، بل قل إنه تعقّد، واختلف فعلاً، واتخذ صورة مغايرة .

والواقع أنه تكونت فى العقل العربى فى أثناء هذا العصر الأموى قشرة من الثقافة أتاحت له أن يتفوق ضروبًا من التفوق فى كل فن عالجه من فنون الشعر ، فهذا الهجاء القديم استطاع هذا العصرُ أن يمدنا فيه بديوانين جديدين لاعهد للعربية بهما .

وأول ما نلاحظ فى ديوان جرير والأخطل أن النقائض تطول طولاً شديداً ، فليست أهاجيهما مقطوعات ، وليست قصائد قصيرة كأكثر الأهاجى القديمة ، وإنما هى قصائد طويلة ، وكثيراً ما تُسْرِف فى الطول .

وهو طول سعى به الشاعران إلى غاية يريدان فيها أن يلائما بين هذا الفن وما أصاب العقل العربى من تطور ونهوض . فلم تعد المسألةُ مسألةَ هجاء عاجل ، بل أصبحت مسألة هجاءٍ معقّد ، يقوم على البحث والدرس فى تاريخ القبائل .

وارجعْ إلى أى نقيضتين لجرير والأخطل فستراهما يحاولان بكل ما يستطيعان أن يثقفا بتاريخ قَيْس وتَغْلِب ، وأن يتعرّفا إلى كل ما لهما من أمجاد فى الجاهلية أو نقائض ومثالب . فهذا الأخطلُ يُلِمُّ بتاريخ تغلب قومه وحروبها القديمة مع القبائل الأخرى وخاصة ما اتصل بقيس، حتى يَغْمِزَ قناتها الغمز الذى يريده فى الهجاء . وهذا جرير يلم بتاريخ قيس التى يدافع عنها وبحروبها فى الجاهلية ، وخاصة ما اتصل بتغلب، حتى يُسدِّدَ إلى الأخطل ما يريد من سهام الهجاء . وفى أثناء ذلك يُعَدِّد كل منهما تاريخ القبيلة التى يتحدث باسمها ، ومفاخرها عامة ، وما كان لها من انتصارات فى الجاهلية على القبائل الأخرى . ويضيف الأخطل إلى ذلك دَرْسًا آخر لقبيلة جرير : كُلَيْب ، ومثالبها ، حتى يرمى جريراً بكل ما يريد من حجارة القذف .

وكل هذه موضوعات واسعة للبحث والدرس ، فجرير والأخطل كل منهما كان يدرس تاريخ هذه القبائل التي يتحدثان عنها ويتناظران أو يتحاوران فيها ، ليحيطا علماً بكل ما يتصل بها ، وليستطيعا الهجومَ عليها إن كانا هاجمين ، والدفاع إنَ كانا مدافعين .

وهذه ظاهرة مهمة فى النقائض ، فهى قصائد تحتاج ثقافة واسعة بتاريخ القبائل العربية فى الجاهلية . هى هجاء من ناحية ، وهى تاريخ من ناحية ثانية ، والشاعر يثقف نفسه أعمقَ ما يكون التثقف بهذا التاريخ . ومن هنا كانت نقائض جرير والأخطل من أهم المراجع لمن يريدون دَرْسَ تَغْلِب وقَيْس ومن اتصل بهما من القبائل ، فهى وثائق تاريخية ، وقيمتها من هذه الناحية بعيدة الخطَر .

ويتصل بهذه الظاهرة التاريخية فى النقائض بين جرير والأخطل ظاهرة أخرى يمكن أن نسميها ظاهرة سياسية ، إذ نجد كل منهما حين يهجو خصمه يلاحظ السياسة القائمة فى الدولة العربية ، وما يتصل بها من ظروف طارئة لم تكن معروفة فى القديم ، لسبب بسيط ، وهو أن الدولة العربية لم تكن قامت ولا عُرفت .

ومعنى ذلك أن كلا منهما كان يحاول أن يلائم فى نقيضته بين هذا التاريخ الذى يَرْويه عن القبائل فى الجاهلية وبين الظروف السياسية الحديثة ، فالأخطل حين يهجو قيساً يفكر فى موقفها من الأمويين ويَجُرُّهُ ذلك جَرًّا إلى أن يجعل نقيضته فى أكثر الأحيان شَرِكةً بين تغلب وعبد الملك من جهة ، وبين قيس خصوم تغلب وعبد الملك من جهة ثانية ، ومن هنا يدخل فى النقيضة قسم خاص بمديح الخليفة .

وبهذه الطريقة أصبحت النقيضة لا تحوى فخراً وهجاء فحسب كما كان الشأن فى القديم ، بل أخذت فى بعض قصائدها على الأقل تحوى مديحاً وسياسة عصرية . ويقدم الشاعر لذلك كله ببكاء الأطلال ووصف رحلته فى الصحراء ، وقد يضيف الأخطل نَعْتاً للخمر ، وبذلك تشتمل بعض نقائضه على جُلِّ فنون الشعر التى عُرفت حينئذ .

ولعلنا بذلك نستطيع أن نفهم لماذا عُدَّ جرير والأخطل شاعرين كبيرين فى هذا العصر ، فقد نهضا بهذا الفن الجديد ، وكان فنًّا صعباً ، إذ كان معقدًا هذا التعقيد . لم يعد الهجاء بيتين أو أبياتاً قليلة تُسَبُّ بها قبيلة أخرى ، بل أصبح

قصائد طويلة تعتمد فى طولها على دَرْسٍ عميق للحياة الجاهلية وما كان بين القبائل العربية فيها من خصومات ، كما تعتمد على درس الحياة الإسلامية الحديثة وما طرأ عليها من ظروف سياسية . وكل ذلك يُتَناوَل تناول المتناظرين فى المسائل العلمية ، فكلٌّ يحاول أن يقدم حججه وأدلته من التاريخ مستلهمًا الحياة السياسية فى عصره .

وكان الأخطل المسيحى حين يمدح عبد الملك خليفة المسلمين يلاحظ هذه الخلافة فى الناس ويَبُثُّ فى حديثه عنه — كما أسلفنا — اصطفاء الله له واختياره لإمامة الأمة . على أنّ الجانب المسيحى فيه جعل جريرًا يهجوه كثيراً بمسيحيته ، وما يؤديه قومه من صدقة ، أو كما يسميها جرير ، جزية . وإنه ليندد دائمًا بملّتهم ، ويتهكم على صُلبانهم وقد يُسهم مارِسَرْجِيس ، كما يتهكم على طعامهم وما يأكلون من خنازير ، وما يتناولون من خمر ، وهذا كله مبثوث فى هجائه لهم من مثل قوله[1] :

أفبالصليبِ ومارِسَرْجِسَ تَتَّقِى   شهبــاءَ ذاتَ كتائبٍ جُمْهُورَا

وقوله[2] :

إنّ النبوّةَ والخلافةَ والهُدَى   رَغْمٌ لتَغْلِبَ فى الحياة طَوِيلُ
خالفتمُ سُبُلَ النبوّة فاخضعوا   بِجِزَا الخليفةِ والذليلُ ذليلُ

وقوله[3] :

رِجْسٌ يكونُ إذا صَلَّوْا أذانُهُمُ   قَرْعُ النواقيسِ لا يَدْرُونَ ما السُّوَرُ
والمُقْرِعون على الخِنْزِير مَيْسِرَهُمْ   بِئْسَ الجَزُورُ وبئس القومُ إذْ يَسَروا
جاءَ الرسولُ بدينِ الحقّ فانتكثوا   وهل يَضِيرُ رسولَ الله أنْ كَفَرُوا

وعلى هذه الشاكلة كان يهجوه دائمًا بدينه وبما تؤدى تغلب من صدقة ، أو كما يقول جزية[4] ، وقد أكثر من تعييره بأنه وقومه من رعاة الخنزير وأنهم لا يقامرون على الإبل كما تقامر العرب ، وإنما يقامرون على الخنازير وفى أثناء ذلك يكثر من هجائهم بشرب الخمر .

---

(١) نقائض جرير والأخطل (طبع الآباء اليسوعيين) ص ١٢٥ .
(٢) النقائض ص ١٨٤ وما بعدها .
(٣) النقائض ص ١٧٢ وما بعدها .
(٤) لاشك أن تعيير تغلب بالجزية فيه مبالغة ، فقد مر فى أول هذا الفصل أن عمر رضى أن تؤدى تغلب الصدقة التى يؤديها العرب من المسلمين ، لا الجزية التى كان يؤديها الأجانب .

وهكذا كانت النقيضة تتألف من عناصر قديمة تتصل بهذا الحس التاريخى بكل ما للعرب فى جاهليتهم من حروب ومآثر ، كما تتألف من عناصر جديدة تتصل بهذا الحس الحاضر بكل ما يتصل بالدولة الحديثة من ظروف سياسية أو دينية . وكان الشاعر ما يزال يَصْدُر عن هذين الحِسَّيْنِ ، حتى يثبت تفوقه ، وأنه السابق المُجلِّى فى المناظرة .

ولم يحتكم الأخطل وجرير إلى ذلك فحسب ، بل احتكما أيضًا إلى الإقذاع فى الهجاء ومحاولة السخرية وإضحاك الجماهير ، حتى يُسْقِط كل منهما قبيلة صاحبه سقوطًا لا تقوم من بعده بما يلبسها من الخِزْى والعار . واعتمدا فى هذا العمل بنقض الصفات التى يبجّلها العرب من كرم ووفاء وغيرهما . ولكل منهما أبيات طارت شهرتها فى العالم العربى ، فمن ذلك قول الأخطل فى إحدى نقائضه[1] :

قومٌ إذا استنبح الأضيافُ كَلْبَهُمُ قالوا لأمِّهِمِ بُولى على النَّار

وواضح أن الأخطل لم يكتف فى هذا البيت بوصف كُلَيب باللؤم والدناءة وابتذال الناس ، بل جعل نارهم أيضًا حقيرة ضئيلة تطفئها الكمية القليلة من الماء. وفى هذا سخرية بالغة ، وهى سخرية استحدثها جرير والأخطل ، والفرزدق من ورائهما ، فى هذا الفن الإسلامى : فن النقائض .

وكان جرير هو الآخر يحاول أن يُلبس الأخطل وقومه أقبح الهجاء وأشده لَذْعًا وتهكما ، فتعمّد دائمًا أن يهجو نساء تغلب وأن يهتك أعراضهن وأن يرميهن بأنواع الفحش ، فإذا عدل عن ذلك فإلى دين تغلب ومسيحيتها ، وكذلك إلى أخلاقها وخصالها من مثل بيته المشهور :

والتغلبىُّ إذا تَنَحْنَحَ لِلْقِرَى حَكَّ اسْتَهُ وتمثَّل الأمثالا

وهى صورة قبيحة كصورة الأخطل السابقة ، ولكنها مضحكة ، وتحمل كل ما أراده من سخرية بصاحبه وبقبيلته. وما من شك فى أن مثل هذا البيت وبيت الأخطل السابق إنما كان يراد به إلى التهليل واستثارة الجماهير وكسب إعجابها وتصفيقها مع الشاعر وأنصاره من القبيلة التى يتحدث باسمها .

---

(١) النقائض ص ١٣٥ .

وأظن أنه قد اتضحت الآن المواد التى تألفت منها نقائض جرير والأخطل ، فهى تتألف من مفاخر قديمة وعلى رأسها الأيام ، كما تتألف من مثالب قديمة وعلى رأسها الأيام أيضاً . وهى بجانب ذلك تتألّف من موادّ حديثة تتصل بالظروف السياسية وبعناصر الإسلام . وهذا كله يُمْزَج بسخرية لاذعة بالقبيلة ، وهى سخرية تمسُّ أخلاقها وخِصالها . ومن هنا تنوعت النقيضة وتنوعت معانيها . وكان الشاعر يقبل على نقيضة خصمه وكأنه يقبل على مناظرة ، فهو ينظر فى كل أدلتها ، ويسوق أمامها ما ينقضها نقضاً ، ويهدمها هدماً . ويشعر الإنسان شعوراً واضحاً حين يقرأ فى نقائض الأخطل وجرير أن كلا منهما كان يقرأ قصيدة خصمه متأنّياً متمهلا ، متبيّنا كل معنى على حدة ، ثم ينظم قصيدته ، وكأن كل بيت فيها يرد على بيت مقابل فى القصيدة الأولى . ولا نشك فى أنهما ولّدا معانى كثيرة فى أثناء قيامهما بهذا العمل الفنى المعقد ، وهو توليد كان ثمرة للرقى العقلى الذى أحرَزَهُ الفكر العربى فى عصر بنى أمية .

٤

نقائض جرير والفرزدق

يمتاز هذا الديوان الثانى للنقائض من الديوان السابق ديوان جرير والأخطل من وجوه كثيرة ، فقد استغرق مدة أطول فى تأليفه ، إذ انتهى جرير والأخطل من صنع نقائضهما معاً بوفاة ثانيهما فى عصر الوليد بن عبد الملك حول سنة ٩١ للهجرة . أما ديوان جرير والفرزدق فقد ظلا يُؤَلِّفان فيه وفى نقائضه حتى تُوُفّيا لعهد هشام بن عبد الملك فى سنة ١١٤ للهجرة . فبين الانتهاء من الديوانين نحوُ عشرين عاماً .

وعلى نحو ما انتهت نقائض جرير والفرزدق متأخرة على نقائض جرير والأخطل بدأت متقدمة ، فبينما بدأت الأخيرة منذ ولاية بشر بن مروان سنة ٧٣ للهجرة على العراق لأخيه عبد الملك نجد الأولى تبدأ ، كما أسلفنا ، منذ ولاية أبى خالد الحارث

ابن عبد الله بن أبي ربيعة (القباع) على البصرة (٦٥ – ٦٧ هـ) لابن الزبير، فنحن نرى جريراً وصاحبه يذكران هذا الوالى فى نقائضهما الأولى، من مثل قول جرير[١]:

أبا خالدٍ لا تُشْمِتَنَّ أعاديًا   يَوَدُّون لو زلَّتْ بمهلكةٍ نَعْلِى

وسبب هذا الاستعطاف أنه كان يتوعده على الاستمرار فى الهجاء مع الفرزدق لما يثيران من عصبيات القبائل، فالرواة يروون أنهما لما تواقفا بالمِرْبَدِ فى ولايته أرسل إليهما عَبَّاد بن الحُصَين، فهدَم دارهما، وطلبهما[٢]. وذكرا ذلك فى نقيضتين لهما، يقول الفرزدق فى أولاهما[٣]:

أحارثُ دارى مرَّتين هَدَمْتَها   وكنت ابنَ أختٍ لا تُخَاف غوائلُهْ

ويقول جرير فى ثانيتهما[٤]:

وما فى كتاب الله هَدْمُ بيوتِنا   كتهديمِ ماخورٍ خَبِيثٍ مَداخِلُهْ

وإذن فنقائض جرير والفرزدق تسبق من حيث الزمن نقائض جرير والأخطل كما تتأخر عليها من حيث الزمن أيضاً، فقد شغلتهما نحو خمسة وأربعين عاماً، بينما شغلت الأخطل وجريراً نقائضهما نحو عشرين عاماً فحسب. ومن غير شك أتاح هذا الدهر الطويل لنقائض جرير والفرزدق أن تكون أكثر عدداً وأكمل فنًّا وأتمَّ صُنْعاً.

ومن يرجع إلى ما يرويه الرواة عن نشأة نقائض جرير والفرزدق يجدهم يتفقون على أن خصومة نشبت بين جرير وشاعر يسمى غَسَّانًا من سَلِيط أحَدِ غصون بنى يَرْبُوع، ودخل بينهما شاعر من مُجاشع قوم الفرزدق يسمى البَعِيث، فتفوَّق عليه جرير، ففزع بنو مجاشع إلى شاعرهم الكبير الفرزدق، وكان قد قيَّد نفسه لحفظ القرآن، واعتزم أن يهجر الشعر، فأظهر شيئاً من التردد، فجاءه نسوة بنى مجاشع واستثرنه للاشتراك فى الخصومة والرد على جرير، ومازِلْنَ به حتى

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ١٦٧.
(٢) أنساب الأشراف للبلاذرى ٥/٢٧٨ والنقائض ص ٦٨٣.
(٣) النقائض ص ٦٠٧.
(٤) النقائض ص ٦٨٣.

فَلَكَّ وَثاقه[١] وزحف إلى المعركة ، واستمر عالقاً بها حتى آخر لحظة من حياته .

وقد يكون هذا الأصل لنشوب المعركة بين الفرزدق وجرير صحيحاً ، غير أن المعركة لم تلبث أن تطورت تحت تأثير مسرح المِرْبَد الكبير وما كان به من جماهير تريد قطع الوقت واللهوَ والتسلية إلى معركة كبيرة لا فى المفاضلة بين عشيرتى الشاعرين فحسب ، بل أيضاً فى المفاضلة بين قَيْس وتَمِيم ، فإن من يتعمق دَرْسَ النقائض ودرسَ حوادث العصر وأشخاصه وظروفه يلاحظ أن هذا المَزْج بين عشيرتى الشاعرين وبين قَيْس وتَمِيم بدأ منذ بدَأت هذه المعركة ، أو فى وقت قريب من نشوئها جداً ، فقد تصادف أن عبد الله بن خازمٍ السُّلَمى القَيْسى صاحب خراسان فى عهد ابن الزبير أوقع بتميم سنة ٦٥ للهجرة[٢] ، فنشبت الخصومة بين قيس وتميم منذ هذا التاريخ ، وظلت تُذْكيها الحوادث طوال عصر بنى أمية . وكان هوى قيس مع ابن الزبير منذ نشبت موقعة مَرْج راهط فى الشام لعهد مروان بن الحكم ، وكذلك كان هوى جرير وقبيلته يَرْبُوع ، فقد غلب على البصرة عقب موت يزيد بن معاوية وفى أثناء الفتنة التى قامت هناك سَلَمَةُ[٣] ابن ذُؤَيب الرِّياحى اليربوعى ، ومنه تسلمها والى ابن الزبير . ونجد يَرْبُوعاً تحارب فى صفوف مُصْعَب ضد عبد الملك بن مروان سنة ٧٢ للهجرة كما نجد شاعرها جريراً يَرْثى من يُقْتَلُون منها حينئذ[٤] .

ومعنى ذلك أن الحوادث قرنت يَرْبُوعاً وشاعرها جريراً مع قيس منذ غَلَبَ ابن الزبير على العراق ، وأيضاً فإن الحوادث وضعت الفرزدق ضد ابن الزبير والقيسيين معه ، فإن قومه هم الذين قتلوا الزبير بعد موقعة الجمَل ، وقد اصطدم بابن الزبير حين خاصمته زوجه النوار إليه فى مكة ، كما اصطدمت تميم بقَيْس فى خراسان . ونستطيع بذلك كله أن نفهم موقفه من قيس ، وأن نفهم فى الوقت نفسه موقف جرير ، إذ أصبح شاعر عشيرته من جهة وشاعر قيْس من جهة ثانية . وانضمَّت إلى ذلك الحاجة الجديدة إلى شاعرين يملآن مسرح المِرْبَد بلعبة النقائض ،

---

(١) النقائض ص ١٢٦ وابن سلام ص ٨٩ وما بعدها .

(٢) طبرى ٢/٥٩٣ وما بعدها .

(٣) النقائض ص ١١٨ .

(٤) أنساب الأشراف ٥/٢٤٥ .

فانبريا يقودان هذه المعارك . ولما تولى بشر بن مروان على العراق أبعد جريراً عنه باعتباره شاعر خصومه الزبيريين ومن والاهم ، وهاجَ الشعراءَ لهجائه[١] . وواضح أن السياسة هى التى جعلته يُبْعِدُه عنه ، وهى أيضًا التى جعلته يدعو الشعراء لهجائه ورَمْيِه بمثل ما كان يَرْمى به هو الأمويين فى أثناء ولاية الزبيريين . وفى الوقت نفسه نجد بشراً يُقَرِّبُ قَيْسًا وشاعرَها الرَّاعِي[٢] منه ، لأن أمه كانت قَيْسِيَّة[٣] ، فهو يعتبره من أخواله[٤] ، وأيضًا فإنه قَرَّبَ تميما وشاعرها الفرزدق منه ، واتخذه نديمًا له[٥] .

وأظننا الآن نستطيع أن نفهم الخصومة التى نشبت بين جرير من جهة وبين الرَّاعى والفرزدق من جهة ثانية ، فإننا نُفاجَأ فى النقائض بموقف غريب ، يخالف منطق الظروف والحوادث ، إذ نرى جريراً يهجو الرَّاعى النُّمَيْرِيَّ القَيْسى ، ويقف الفرزدق فى صف الراعى ويدافع عنه[٦] وهو موقف شاذ ، هيأ له ظهورُ بِشْر فى العراق وتقريبُه بين الراعى من جهة والفرزدق من جهة ثانية ، فتطوَّرَ الموقفُ ، بل انعكس ، ووجدنا جريراً يهجو نُمَيْرًا وشاعرها ، والفرزدق ينصرها وينصر شاعرها .

وليس معنى ذلك أن جريراً انصرف عن قيس جميعها فهو إنما هجا نُمَيْرًا وحدها . ولا نبالغ إذا قلنا إن هذا كان حادثًا عارضًا ، لأن بشراً لم يلبث أن تُوُفِّىَ ، وأيضًا فإن جريراً لم ينصرف عن قيس حتى فى حياة بِشْر ، فإنه دخل مدافعًا عنها مع الأخطل شاعر تَغْلِب ، وأخذا ينظمان معًا نقائضهما التى سبق أن عرضناها .

ولعل فى هذا كله ما يدل على أن جريراً كان شاعر قَيْس قبل وفود بِشْر على العراق ، وإن تكن نقائضه الأولى مع الفرزدق تخلو من الإشارة إلى قَيْس . على أن هذا وحده لا يكفى لتشخيص الموقف ، لأن النقائض التى بين أيدينا لهما ليست هى كل نقائضهما وإنما هى بقايا مما قالاه . وهناك نقيضة نظمها جرير فى أول ولاية الحجاج على العراق سنة ٧٥ للهجرة ونراه فيها يُعَيِّر الفرزدق بانتكاسه ، إذ يراه يمدح الحجاج القيسى وولاته ، وفى ذلك يقول له[٧] :

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ٨/١٨ ، ٨/٣١٥ .
(٢) أغانى ٨/٢٩٤ وأنساب الأشراف ٥/١٧٨ .
(٣) كانت أم بشر قيسية من بنى جعفر ابن كلاب ، انظر أنساب الأشراف ٥/١٦٤ .
(٤) أغانى ٨/٢٩٤ .
(٥) أنساب الأشراف ٥/١٦٨ .
(٦) انظر النقائض ص ٤٢٧ وما بعدها والأغانى ٨/٢٩ وما بعدها .
(٧) النقائض ص ٦٩١ .

رأيتُكَ إذْ لم يُغْنِكَ اللهُ بالغِنَى ... لَجَأْتَ إلى قَيْسٍ وخدُّكَ ضارعُ

وهدأت هذه المعارك القيسية التميمية قليلاً فى عهد الحجاج ، ثم عادت إلى العنف والشدة بعد وفاته ، وبعد حادث ثورة قتيبة بن مسلم الباهلى القيسى والى خراسان على سليمان بن عبد الملك وقَتْلِ وكيع بن أبى سُود التميمى له ؛ واستمرت حتى لفظا أنفاسهما الأخيرة .

على أنه ينبغى أن نفهم أن هذه المعارك بين عشيرتى الشاعرين ، ثم بين قَيْسٍ وتَمِيم لم تكن معارك صارمة ، كما أشرنا إلى ذلك سابقًا ، وإنما كانت معارك يُرَاد بها اللهو والتسلية . وارجعْ إلى أخبار الشاعرين تجدهما غير متحاقدين ولا متخاصمين بل متصادقين متوادّين ، كما يتصادق ويتوادّ فى عصرنا الصحفيون الذين يعملون لحساب أحزاب متعارضة . ويظهر ذلك فى أنهما كانا كلما وقع أحدهما فى شدة حاول صاحبه أن يخرجه منها جاهداً ، فإذا طُلِب جرير لحرب الأزارقة توسَّط له الفرزدق عند المهلَّب ليتركه[1] ، وإذا حُبِس الفرزدق توسط له جرير عند صاحب الشُّرْطَة فى العراق[2] ، ثم عند هشام بن عبد الملك فى الشام[3] .

فالمسألة لم تكن صراعًا صارمًا كما ظن الرواة . وفى كل مكان نجد نصوصًا تشهد بأنهما كانا متعاطفين متراحمين ، لا متقاطعين متنابذين ، وقد حزن جرير على صاحبه حزنًا شديداً حين سبقه إلى الموت ، ورثاه بأبيات مختلفة ، منها قوله[4] :

فُجِعْنَا بحَمَّالِ الدِّيَاتِ ابنِ غالبٍ ... وحَامِى تَمِيمٍ عِرْضِهَا والمَرَاجِمِ[5]
بَكَيْنَاكَ حِدْثَانَ الفِرَاقِ وإنما ... بَكَيْنَاكَ شَجْواً للأمورِ العَظَائمِ
فلا حَمَلَتْ بعد ابنِ لَيْلَى مَهِيرَةٌ ... ولا شُدَّ أنْسَاعُ المَطِيِّ الرَّوَاسِمِ[6]

فالصِّلَةُ بين الشاعرين لم تكن مُنْبَتَّة ، بل كانت صِلَة مودَّة ، وكانا يقومان بهذه النقائض على أنها شىء يُقْصَدُ به إلى التسلية أكثر مما يُقْصَدُ به إلى السِّباب

---

(١) أغانى ١٩/٢٩ .
(٢) أغانى ١٩/٣٢ .
(٣) ابن عبد ربه ٣/١٤٥ .
(٤) الديوان ص ٥٣٥ وانظر ابن سلام ص ١٠٠ .
(٥) المراجم : المناضل .
(٦) المهيرة : الحرة . أنساع : جمع نسع ، وهو سير تشد به الرحال . والرواسم : النوق من رسمت الناقة إذا أثرت بحوافرها فى الأرض .

والتخاصم . وكان مَنْ حولهما يعرفون ذلك ، ومن هنا تأتى استثارةُ ولاةِ العراق لهما بحضرتهم ، وكأنهم يريدون أن يُسَلُّوا أنفسهم، ويكشفوا بعض غُمَّتها . ومن طريف ما يُرْوَى من ذلك أن الحجَّاج قال لهما : « ائْتِيا فى لباس آبائكما فى الجاهلية ، فجاء الفرزدق وقد لَبِسَ الديباج والخَزَّ وقَعَدَ فى قُبَّةٍ ، وشاور جرير دُهَاةَ بنى يربوع ، فقالوا : ما لباس آبائنا إلاّ الحديد ، فلبس جرير دِرْعًا ، وتقلَّد سَيْفًا ، وأخذ رُمْحًا ، وركب فرسًا لعبَّاد بن الحُصَيْن ، يقال له المِنْحَاز ، فى أربعين من يَرْبُوع ، وجاء الفرزدق فى هيئته ، فقال جرير :

لَبِسْتُ سِلاحى والفرزدقُ لُعْبَةٌ ... عليه وِشَاحا كُرَّجٍ[1] وجَلاجِلُهْ

أعِدُّوا مع الحَلْىِ المَلَابَ[2] فإنَّما ... جريرٌ لكم بعْلٌ وأنتم حلائلُهْ »[3]

ولا بد أن الحجَّاج ضحك طويلاً حين رآهما على هذه الهيئة ، وضحك معه من شاهدَهما من أهل البصرة .

ونحن نزعم من هذا وأشباهه أن المسألة لم تكن جادَّةً كما يتصور الرواة ، ولعل هذا ما جعل الشاعرين جميعًا يملآن نقائضهما بالفُكاهة ، وخاصة جريراً ، فى جوانب كثيرة من نقائضة يرمى الفرزدق بأن زوجه النوار تكرهه ، وأنه ليس فيه ما تعشَقه النساء[4] . وقد تكون قصة جِعْثِن أخت الفرزدق وما يرميها جرير به من السوء أريد بها قبل كل شىء إلى الضحك والتَّنْدير . وفى الوقت نفسه نجد الفرزدق يُعَيِّره بجارية له طلبت منه أن يبيعها، لأ نها كرهته وكرهت مَطْعَمَه ومَلْبَسَه[5] . ومن هذا الباب قصة نَبُوِّ السيف فى يد الفرزدق ، وذلك أن سليمان بن عبد الملك « حجَّ وحجَّ الشعراء معه ، فلما كان بالمدينة راجعًا تلقَّوه بنحو أربعمائة أسير من الروم ، فقعد سليمان ، وأقربُهُمْ منه مَجلسًا عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، فقُدِّم بِطريقهم ، فقال : يا عبد الله اضرِبْ عُنُقَه ، فقام ، فما أعطاه أحد سيفا ، حتى دفع إليه حَرَسِىٌّ سيفاً ،

---

(١) الكرج : لعبة على هيئة المهر يلعب عليها الأطفال .
(٢) الملاب : العطر .
(٣) ابن سلام ص ٩٦ وأغانى ٨/٧٦ .
(٤) النقائض ص ٨٠٣ وما بعدها .
(٥) أغانى ٨/٥٣ .

فضربه ، فأبانَ الرأسَ وأطَنّ الساعدَ ، فقال سليمان : أما والله ما من جَوْدَةِ السيف جادت الضربة ، ولكن لحسَبه ، وجعل يدفع البقية إلى الوجوه وإلى الناس يقتلونهم ، حتى دفع إلى جرير رجلا منهم ، فدسّت له بنو عَبْس سيفًا فى قِرَاب أبيض ، فضربه ، فأبان رأسه ، ودُفِعَ إلى الفرزدق أسيرٌ ، فلم يجد سيفا ، فدسُّوا له سيفًا متينًا لا يَقْطَع ، فضرب به الأسير ضربات ، فلم يصنع شيئًا ، فضحك سليمان والقوم ، فألقى السيف ، وأنشأ يقول ، معتذرًا إلى سليمان ، ومؤتسيا بِنُبُوِّ سيف وَرْقاء بن زُهَير العَبْسى عن رأس خالد بن جعفر بن كلاب :

إن يَكُ سَيْفٌ خانَ أو قَدرٌ أتَى ... بتأخير نَفْس حتفُها غَيْرُ شاهِدِ
فسَيْفُ بَنِى عَبْس وقد ضربوا به ... نَبَا بيدَىْ ورقاءَ عن رأس خالدِ
كذاك سيوفُ الهند تَنْبُو ظُبَاتُها ... وتقطَعُ أحيانًا مَنَاطَ القلائدِ »[1]

وهذه الحادثة التى أضحكت سليمان وحاشيتَه فى الحجاز استمرّ جرير يُضْحِك بها الناس فى المِرْبَد بالعراق ، فكلما أراد أن يسخر من الفرزدق ويلعب به بعض اللَّعِب ويندّر عليه بعض التندير ذكرها فى شعره ، من مثل قوله[2] :

بسَيْفِ أبى رَغْوَان سَيْفِ مُجاشع ... ضَرَبْتَ ولم تضربْ بسيف ابن ظالمِ
ضربْتَ به عند الإمام فأرْعِشَتْ ... يَدَاكَ وقالوا مُحْدَثٌ غَيْرُ صارمِ

ولا ريب فى أن هذه الحادثة وما قبلها عناصر مضحكة كان يُدْخِلها جرير فى نقائضه لغرض الترويح عن الناس فى المِرْبَد وتسليتهم ، أو قل لغرض استجلاب تصفيقهم واستحسانهم ، إذ كانت له حَلْقة كما كانت للفرزدق حلقة أخرى ، وكان المستمعون ما يزالون ينتظرون بيتًا أو شطراً يُهلِّلُون له ويصيحون ، وكانوا ما يزالون يستفزُّونهما ، ليصوغا بيتًا أو شطراً يتعلقون به ويتندّرون بفكرته ، ويُحدِثون كل ما يريدون من شَغَب وهَياج وتَهْريج وتَصْفير[3] .

(١) طبرى ١٣٣٨/٢ وابن سلام ص ٩٤ والنقائض ص ٣٨٣ وما بعدها .
(٢) النقائض ص ٤١٣ .
(٣) انظر فى ذلك خبراً طريفاً فى ترجمة أبى حزابة فى الأغانى ١٥٣/١٩ حيث يروى أبوالفرج أنه هجا شخصاً يسمى عون بن سلامة=

ولعلنا بذلك نستطيع أن نقترب من فهم حقيقة هذه النقائض بين جرير والفرزدق وأنها كانت عملا يُراد به — قبل كل شيء — إلى تَسْلِيَة الجماعة العربية الجديدة فى البصرة ، فقد تكوّن المجتمع العربى هناك فى شكل مدينة لأول مرة فى تاريخ القبائل التى نزلت البصرة . وهى قبائل أكثرها مُضَرِيَّة ، إذ كان جمهورها من قَيْس وتَمِيم ورَبيعة . وكانت هذه القبائل تعيش فى أثناء العصر الجاهلى فى البادية جاهدة فى تحصيل قوتها وأسباب عيشها ، فلما جاءت الفتوح ، واشتركت هذه القبائل فيها ، أنزلها عمر فى البصرة والكوفة ، اختطهما لها على حدود فارس .

وأخذت جموعها تعيش فى هاتين المدينتين معيشة جديدة يخدمهم فيها الفرس وغيرهم من الموالى ، وقد ملأت الفتوح حجورهم بالأموال ، ونُظِّم لهم عطاء فى دواوين الدولة ، وأتاح ذلك كله لهم حياة هادئة رَخِيَّة ، ليس فيها شَظَفُ العيش القديم ، وإنما فيها الراحةُ والفراغ والعُطلة ، وخاصة لمن لم يشتركوا فى الثورات والانتقاض على بنى أمية .

ومن هنا وُجِدَت فى العراق وفى مدينتيها الكبيرتين البصرة والكوفة تلك الجماعة العاطلة التى يُبَشِّر وجودها دائمًا بنشوء حياة عقلية نشيطة، فالناس يُضْطَرُّون اضطراراً إلى تمضية أوقاتهم فى عمل من الأعمال . وهذا ما حدث فعلا فى البَصْرَة حيث التقت ثقافات مختلفة من إغريقية وفارسية وآرامية وعربية ، وكان من ثمار ذلك أن ظهرت حركات دينية وعقلية جديدة ، وأخذ العلماء يدرسون مسائل القَدَر والإيمان ، كما أخذوا يدرسون مسائل التشريع ، وينقلون ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة . وحتى اللغة بدأوا يُخْضِعونها للدراسة منذ أبى الأسْوَد

= بأبيات فيها قذف لأمه ، فكان الناس يصيحون به ويكررون شطراً يقول فيه أبو حزابة (أعلمها وعالم العلامه) . وفى كل مكان من الأغانى نجد فيه ذكر المربد نجد الناس يتحلقون حول الشعراء وما يزالون ينتظرون البيت أو الشطر الذى يتصايحون به . وفى أخبار العجاج أغانى (طبع دار الكتب ١٠/١٥٢) أنه وقف فى المربد يهجو ربيعة فلجأت إلى شاعرها أبى النجم فأتى الناس ، وأخذ ينشد نقيضة فى العجاج ، حتى بلغ إلى قوله (شيطانه أنثى وشيطانى ذكر) فتعلق به الناس وتصايحوا وهرب العجاج . وانظر الأغانى (طبع دار الكتب) ١٥/٣٩٢ حيث نرى الفرزدق وزيادا الأعجم يتحاوران فى المربد والناس من حولهما يضحكون ويهللون . وفى أخبار الحكم بن عبدل (أغانى ٢/٤١٣) أنه هجا محمد بن حسان بقصيدة قال فيها (أمات الله حسان بن سعد) فذاعت ، حتى كان المكارى يسوق بغله أو حماره فيقول (عد : أمات الله حسان بن سعد) . وهذه كلها صور دالة على ما كان يسود المربد من تهريج ، وتصفيق ، وصفير ، وصياح .

الدؤلي ، فنشأت هذه الحركة اللغوية المباركة ، التي اضطلع بها في أواخر هذا العصر أبو عمرو بن العلاء وابن أبي إسحق .

ومعنى ذلك أن الحياة العقلية في العراق وفي البصرة لهذا العصر ثمرةٌ من ثمار العَطَل في هذه الجماعة العربية الجديدة ، وهو عَطَلٌ أخرج العرب من بداوتهم القديمة إلى حياة متحضرة فيها خصبٌ عقلي ونشاط فكري . والمفروض أن أي جماعة يوجد فيها هذا العطل تحاول أن تقضي بعض أوقات فراغها في شيء تتلهى به ، وتتسلى ، وتقطع مسافة الفراغ .

وإذا تذكرنا ما كان في مدينتي الحجاز من غناء ظننا أننا مُقبِلون في العراق على ما يشبه ذلك ، وأن البصرة ستُعْنَى بفن الغناء والموسيقى كما عُنيت مكة والمدينة ، غير أن البصرة لم تتَّجه هذا الاتجاه ، وكان لابد – على كل حال – لجماعتها أن تَشْغَل نفسها بفنٍ من فنون اللهو وضرب من ضروب التسلية .

ولم تكن نقائض جرير والفرزدق إلا هذا الفنّ الجديد الذي وَجَدَت فيه البصرة كلَّ ما تريد من لَهْوٍ وتسلية وقَطْع وقْت أو فراغ ، فهي اللُّعْبَة التي كان يُعْجَب بها القوم ، والتي كانوا يخرجون للفُرْجَة عليها في هذا المَسْرَح الكبير ، مسرح المِرْبَد ، الذي كانت تختلف إليه القبائل والجماهير ، وتتحلق حلقات للاستماع إلى الشعراء ، وإلى ما يُحْدِثُ جرير والفرزدق خاصة[١] .

وهكذا كان يتحلَّق الناس حول الشاعرين الكبيرين هنالك ، أما الفرزدق فيتحلق حوله قومه من تَميم وبنى دارم ومُجاشع وأخلاطٌ من قبائل أخرى ، وأما جرير فكانت تتحلَّق حوله قبيلته من كُلَيْب وبني يَرْبُوع كما تتحلَّق حوله جماعات كثيرة . وكان بعضها من قبائل ، لم تكن في صَفاء مع تميم منذ الجاهلية ، وهي قبائل قَيْس .

ويقف أحدهما فيُلقي من جَعْبَته كل ما أعدَّه لخصمه من سهام الشعر ، وسرعان ما يحمل الرواة هذه السهام إلى صاحبه ، فينظر فيها ويُطيل النظر ، ثم يحاول أن يَنْقُضَها وأن يردَّ عليها سهمًا سهمًا ، وبيتًا بيتًا ، ومعنى معنى . فالفرزدق مثلا يُنْشِد قصيدة أو نقيضة في هجاء قَيْس وقوم جرير كُلَيْب ويفتخر بتَميم وأمجادها في الجاهلية ، وقد يضيف إلى ذلك انتصاراً للأخطل

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٨/٢٩ وما بعدها .

وتَغْلِب . ويحمل الرواةُ النقيضةَ إلى جرير ، فيحاول أن يردَّ كل ما فيها من سهام إلى نَحر الفرزدق وقومه دارم ، ويتعرض للأخطل يقذفه بدينه وكل ما يَرِد على خاطره . والناس من حول جرير وصاحبه يهرِّجون ويصفِّرون ويخرُّون للأَذقان — كلما مر بهم قَذْفٌ أو فكاهة — ضاحكين ساخرين .

وعلى هذه الصورة كان يتكوَّن فى هذا العصر مَسْرَحُ المِرْبَد ، يذهب إليه جمهور النَّظَّارة من أهل البصرة ومَنْ يَفِدُ عليهم من البادية أو من الحجاز للفُرجة على هذا الفن الذى كان يجيده الشاعران ، والناس يصفقون لهذا تارة ولذاك أخرى ، ويستثيرون بتصفيقهم كل استطاعة عندهما للتجويد والتحبير .

ليست النقائض بين جرير والفرزدق إذن جِدًّا خالصًا ، فقد كان يُرادُ بها إلى اللهو والتسلية ، وأن تَمْلأَ أوقات الناس فى البصرة ، ومن ثَمَّ لم يُثِرْ سِبابُها حَفِيظَةً بين القبائل . وكما نذهب نحن الآن إلى دور التمثيل والخيالة نلهو بعض الوقت ، أو كما نذهب إلى نادٍ رياضى للفرْجة على لُعْبَة كُرَة القدم مثلا كان نظَّارة البصرة يذهبون إلى المِرْبَد للفرجة على لُعْبَة النقائض .

وظلَّ الفرزدق وجرير يتقاذفان هذه النقائض أو هذه الكُرَات من الشعر حِقَبًا متطاولة ، ويتجمَّع أهل البصرة حولهما ، ليروا إحسانهما وتفوُّقَهما فى هذه اللُّعْبَة . ومن حين إلى حين كان يحاول بعض الشعراء الأصاغر أن يأخذ الكرَة من جرير أو صاحبه ، فما يلبث أن يسقط فى الميدان(١) . ويستمر اللاعبان الكبيران فى لعبهما أو نقائضهما ؟ وكلٌّ يحاول أن يُبَرِّز وأن يتفوَّق على منافسه ، تمامًا كما نصنع الآن فى عصرنا الحديث فى هذه اللعْبة اللطيفة التى يَسْعَى الناس لرؤيتها ، والتى تسمى المناظرات .

والحق أن نقائض الشاعرين لم تكن إلا مناظرات أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وهى مناظرات احتفظَ لنا بها الشعرُ العربى ، وقد صُنِعَتْ على ضوء هذه المناظرات العقلية والدينية التى أشرنا إليها فى غير هذا الموضع ، فكما كانت تكتظُّ البصرة بمناظرات أصحاب النِّحَلِ والعقائد كانت تكتظُّ بمناظرات أدبية ، اشتهر منها خاصة مناظرات جرير والفرزدق .

---

(١) حاول ذلك مع جرير عشرات من الشعراء ، انظر الأغانى ٨/٨ — ١٣ وما بعدها . وممن حاول ذلك أيضاً مع الفرزدق الطرماح والأصم الباهلى وجندل بن الراعى النميرى وغيرهم . انظر الديوان ص ٣٤ ، ٤٥ .

وقد مرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن الفرزدق وجريراً كانا يحضران مجالس العلماء ومناقشاتهم ومحاوراتهم . وعلى ضوء هذه المناقشات والمحاورات وفى ظلالها ألَّفا نقائضها فى المفاضلة بين عشيرتيهما من جهة وبين تميم وقيس من جهة ثانية . وكما يحاول صاحب النِّحْلَة من النِّحَل أن يستدلَّ على نِحلته وأن يفنِّد أدلة خصمه كانا يستدلاَّن على نحلتهما العصبية فى عشيرتيهما ، وفى تميم وقيس ، وكانا يرْفِدان شعرهما أو نقائضهما بكل ما يمكن من حُجَج وبراهين ، يؤيدان بها وجْهة نظرهما ، وفى الوقت نفسه كانا يأتيان بكل ما يمكن من أدلَّة وبراهين لتحطيم أمجاد تميم وقيس ، كلٌّ حسبَ ما يزعم فيمن أخذ صفوفهم ، ووقف معهم[1].

ولا شك فى أن ذلك كان يستهوى الجماهير ، فكانت تذهب إلى المرْبَد ، لترى ما أحدث كلٌّ من الشاعرين . وعلى عادة الجماهير يكثر الهرج أو يكثر التصفير والتصفيق ، ويتجمَّعون حول أحد الشاعرين تارة ، وينفضُّون عنه إلى خصمه يستمعون إليه تارة ثانية .

وعلى هذه الشاكلة كانت نقائض جرير والفرزدق تأخذ شكل مناظرات أدبية كبيرة . وهذه الكلمة كلمة مناظرات تجعلنا نَضَعَ النقائضَ فى تاريخ الأدب العربى وضعاً جديداً ، فنحن نزعم أنها حديثة العهد بالإسلام وبالبصرة فى هذا العصر الأموى خاصة . فقد وُجِدَت فيها لأوّل مرة ، ورشّحَ لها عاملان : عامل اجتماعى هو هذا العَطَلُ والفراغُ الذى حدث فى تاريخ القبائل العربية ثم ما اتصل بذلك من إحياء العصبيات وتورّط القبائل فى أحزاب سياسية ، وعامل عقلى هو هذه المحاورات والمناقشات التى كانت تدور بكل مكان فى البصرة ، فى المساجد ، وفى المجالس ، وفى الطرقات والأسواق .

وهذا العامل الثانى هو الذى لَقَّنَ جريراً والفرزدق القدرة على الحوَار والجدَل ، ومكَّن فى شعرهما لفكرة التعليل والتَّسبيب وَوَضْع المقدِّمات وتلوين الهجاء بألوان عقلية حديثة . ومن هنا تأتى فكرة أن النقائض الأموية جديدة ، فهى

---

(١) لعل فى هذا ما يلفتنا إلى أن نقائض جرير والفرزدق جمعت بين دفتيها مثالب تميم خاصة ، ثم مثالب قيس وغير قيس من العرب ، وأكبر الظن أن هذا ما جعل أبا عبيدة الشعوبى يعنى بها فيرويها ، ثم يشرحها هذا الشرح الكبير ، فقد وجد فيها خير مادة تحطم له ولأمثاله من الشعوبيين الأمجاد العربية .

تُقالُ فى جو عقلى جديد ، وتُصَاغ فى جو اجتماعى جديد ، صياغةَ المناظرة لا صياغة الهجاء العادى القديم ، فالشاعر لا ينظم معانىَ بلويِّة بسيطة ، بل ينظم معانىَ تتلاءم مع التطور العقلى الحديث ، الذى أصابه الذهن العربى ، والذى طوّره من بعض جوانبه . ومن هنا يأتى نكوص الشعراء الذين حاولوا أن يدخلوا مع الشاعرين الكبيرين فى هذه المناظرات ، لأنهم ظلوا محتفظين ببداوتهم وتقاليد الشعر القديمة ، ولم يستطيعوا أن يُجاروا روح العصر ، بل عجزوا عجزاً تامًّا ، لأن عقولهم لم تكن مهيَّأةً لهذه المجاراة ، ولم تكن قد ثَقِفَت فى بيئات العلماء طرقَ الجدال والحوار على نحو ما ثقف ذلك جرير والفرزدق .

ليست النقائض إذن أهاجىَ بالمعنى القديم الذى كان يفهمه العرب فى الجاهلية للهجاء ، وإنما هى مناظرات أدبية أوجدتها ظروفٌ عقلية وأخرى اجتماعية لعصر بنى أمية . ولعلَّ من الطريف أنها اقترنت عند جرير والفرزدق بمسألة شكلية نلاحظها فى مناظراتنا الحديثة ، فنحن إذا تساءلنا أين كان يقف جرير فى مناظراته مع الفرزدق كان الجواب الطبيعى أنه يقف فى صفوف قومه تَميم ، فإن أبىَ تَميمًا كان عليه أن لا يقف فى صفوف خصومها . ولكن الذى حدث فعلا أن جريراً لم يَقِفْ دائمًا فى صفوف تَميم ولا فى صفوف أنصارها ممن كانت تعاهدهم فى الجاهلية والإسلام مثل كَلْب ، وإنما وقف فى الصفوف المقابلة مع خصومها وأعدائها : صفوف قَيْسٍ وفروعها وغصونها . وطبعًا كان ينصر قومه كُلَيبًا أمام قوم الفرزدق مُجاشِع ، غير أنه كان يدافع أيضًا عن قيس ضد دفاع الفرزدق عن تَميم ، بالضبط كما يقف المناظر فى عصرنا الحديث ليدافع عن وجهة نظر مُعَيَّنَة فى موضوع من الموضوعات ، وليس من الضرورى أن يكون مؤمنًا بها ، بل قد يكون من خصومها ، ويأتى به من أعَدُّوا المناظرة للإغراب على الناس وجمهور النَّظَّارة .

وعلى هذا النمط جَلَبَتْ قَيْس جريراً ليذود عنها أمام الفرزدق وتميم ، فتمَّت بذلك صورةُ بعض مناظراتنا الحديثة حين يدخل شخص فى مناظرة وهو غير مقتنع بفكرة من الأفكار ، فيوضَع للدفاع عنها ، وبذلك تصبح المسألة لُعْبَة عقلية لا أقلَّ ولا أكثر ، يُرَادُ بها إلى تسلية السامعين والمِرَان على الجدل

والحوار فى المسائل أيًّا كان الوضع ، وأيًّا كانت الغاية .

ألسنا إذن فى نقائض جرير والفرزدق بإزاء مناظرات أدبية حقيقية ؟ فهذا جرير يقف فى المِرْبَد ليدافع عن قيْس ، وما عهدنا فى الجاهلية ولا فى الإسلام شخصًا يتنازل هذا التنازل عن قبيلته ، ويلحق بقبيلة أخرى ، يتعصّب لها ، ويتشيّع لأهلها وأبنائها ، على نحو ما يتشيّع ويتعصّب جرير لقيْس أعداء تَميم فى الجاهلية والإسلام .

ولو أن الإسلام استطاع أن يُنْسِي العرب عصبياتهم وأن يَمْحُوَها محواً لاستطعنا أن نفهم موقفَ جرير ، غير أننا نعرف أن الإسلام لم يستطع أن يَقِف العصبيات إلا إلى مدة محدودة ، فقد خمدت نيرانها قليلاً ، ثم عادت إلى الاشتعال منذ فتنة عثمان ، وظلّت تتأجّج طوال عصر بنى أمية ، حتى فى أقصى الشرق ، فى خراسان ، وفى أقصى الغرب ، فى الأندلس . ومعنى ذلك أن العرب لم يستطيعوا أن يتخلصوا من عصبياتهم يومًا ، فإذا جاء جرير التميمى يتعصّب لخصوم قومه من قَيْس لم نستطع أن نَحُلّ هذه المشكلة إلاّ على أن المسألة كانت مسألة مناظرات أدبية اجتماعية ، أو مسألة لعبَة يتفرّج عليها الجمهور فى البصرة .

قد يقال إن المسألة مسألةُ تورُّطٍ ، إذ اتصل جرير بولاة الزُّبَيْريين فى العراق ، ووَصَلَهُ ذلك بأنصار ابن الزبير وعلى رأسهم قَيْس ، واستمر هذا الاتصال وخاصة فى عهد الحجاج . وأيضًا فإن قيسًا كانت تكافئه على موقفه منها ، وكانت تصبُّ فى حجره بعض أموالها ، على ما أشرنا إليه فيما مرّ من كلامنا .

ونحن لا ننكر السببَ السياسىّ فى نشأة النقائض بين الشاعرين ولا السببَ المادىّ فى استمرارها ، ولكننا مع ذلك نزعم أن المسألة تحوّلت فى نفسية جرير إلى صورة من صُوَرِ المناظرة ، بل لقد تحوّلت هذا التحوُّل فى نفوس الناس عامة ، حتى نفوس الخلفاء المَرْوانيِّين أنفسهم ، الذين كانوا يخاصمون قيْسًا ، أو على الأقل كانت كثرتهم تخاصم قيْسًا ، كما كانت تخاصمها تَميم ، فإن هؤلاء الخلفاء كانوا يستمعون إلى جرير شاعر قيْس ، ولم تكن تَضِيرهم فيه هذه القَيْسية .

فخلفاء بنى أمية لم ينظروا إلى النقائض بين جرير والفرزدق أو بينه وبين الأخطل نظرة جادة ، فقد فهموها على حقيقتها وأنها لُعبَة القبائل الجديدة فى العراق وفى

البصرة خاصة ، تُمْضِي فيها أوقات فراغها ، وتَلْهُو بعض اللَّهْوِ بها . ومن هنا لم يجدوا حَرَجًا فى أن يضمِّن جرير والفرزدق والأخطل مديحهم شيئًا من هذه المناظرات لغرض التَّسْلِيَة والتَّرفيهِ ، وأن يَطَّلِعُوا وهم فى قصورهم على جوانب من هذه المناظراتِ ، التى سارت بها الركبان ، وعمَّت فى كل مكان ، وأصبحت حديثَ العرب ومجامعهم ، وطُرْفَةَ مجالسهم ومحافلهم .

وعلى هذه الشاكلة لم تعد المسألةُ مسألةَ أهاجٍ فحسب ، بل أصبحت مسألة مناظرات ومحاورات ، ومناقشات ومجادلات ، وكانت تُصَاحِبها السياسة حينًا ، كما صاحبت نقائض جرير فى أصلِ نشأتها ، وتَنْفَصِل عنها حينًا ، كما انفصلت عنها فى أثناء ولاية غير القَيْسِيِّين على العراق ، ومع ذلك تستمر . فجرير يناظر عن قيْس فى أثناء حكم الزبيريين وأثناء ولاية الحجَّاج القَيْسى وعمر بن هُبَيْرة الفَزارى على العراق ، ويناظر عنها أيضًا بعد إدبار الأمر عن الزبيريين ، وكذلك فى أثناء ولاية غير القيسيين على العراق من مثل يزيد بن المهلَّب الأَزْدِيِّ وخالد القَسْرِيِّ .

وهذا كله معناه أن نقائض جرير والفرزدق كانت مناظرات اجتماعية بكل ما يمكن أن تَحْمِلَ هذه الكلمة من معنى ، وكذلك كانت عند معاصريهما ومن كانوا يختلفون إليهما . وعلى نحو ما نصنع نحن الآن فى مناظراتنا حين يَقِف شخص يدافع عن وجهة نَظَرٍ معينة ، ثم يردّ عليه صاحبه أو مناظره ، وفى أثناء ذلك يُنْصِتُ الجمهور ، ويستمع ، ثم يقوم من بينه من يَنْصُرُ هذا المناظر أو ذاك ، كذلك كان الشأن فى مناظرات جرير والفرزدق أو فى نقائضهما . وكان أكثر المنتصرين يَقِفُون فى صف الفرزدق ، لأنه كان فعلاً متفوقًا فى أسرته ومكانته الاجتماعية . وممن وقف فى صفه سُرَاقة البارِقىّ ، وفيه وفى جرير يقول(١) :

إنَّ الفَرَزْدَقَ بَرَّزَتْ أعْرَاقُهُ ... عَفْواً وَغُودِرَ فى الغُبَارِ جريرُ

وممن وقف فى صفِّه أيضًا الرَّاعى الشاعر النُّمَيْرِى القَيْسى ، وهيأت لذلك صلته ببشر بن مروان ، كما أسلفنا ، فقال(٢) :

يا صاحبيّ دَنَا الرَّوَاحُ فسِيرَا ... غَلَبَ الفرزدقُ فى الهجاءِ جَرِيرا

---

(١) أغانى ٨/١٨ . (٢) أغانى ٨/٢٠ .

وثارَ جرير على الرّاعى ، وغاظه أنه ينضمّ إلى الفرزدق ، مع أنه يَقِفُ فى المِربَدِ مدافعاً عن قومه مادحاً لهم أمام مناظرات الفرزدق ونقائضه ، فقال فيه وفى الفرزدق بائيته المشهورة ، وكان يُسميها الدمّاغة والمنصورة[1]، وفيها يقول للراعى بيته المأثور :

فغُضّ الطّرفَ إنك من نُمَيْرٍ فلا كَعْباً بلَغْتَ ولاكِلاَبَا

والذين قَضَوْا للفرزدق على جرير كثيرون ، منهم المرّار بن مُنْقِذ ، وثَوْر بن الأشهَب بن رُمَيْلة النّهْشَلى ، والدّلهمَس وهُبَيْرة بن الصّلْت التميميان ، والطُّهَوِىُّ[2] ثم الصّلتَان العَبْدِى ، وقد فضّل الفرزدق فى المجد ، وفضل جريراً فى الشعر[3] ، ولعله الوحيد الذى رأى أن يُرْضى الطّرَفين .

وعلى هذا النحو كلما أمْعَنّا فى درس النقائض واتصلنا بجوّها وظروفها وجدناها تتطابق تماماً مع صور المناظرات الأدبية التى نعرفها ، فإذا قلنا بعد ذلك كله إنها كانت مناظرات اجتماعية ولم تكن أهاجىَ بالمعنى القديم ، وأنها مناظرات لا عهد للعرب بها لم نكن مُغَالين ولا مُبْعِدِين فى شىء .

وإذا رجعنا نُحَلِّلُ عناصر هذه المناظرات بين جرير والفرزدق وجدناها تَنحلُّ إلى نفس العناصر التى تحدّثنا عنها سابقاً عند جرير والأخطل فى نقائضهما . فكل نقيضة لأحد الشاعرين نراها تَنْحلُّ إلى مفاخر الجماعة التى يتحدّث باسمها ومثالب خصومها ، فالفرزدق مثلاً حين ينظم نقيضته يَعْرِض لمفاخر تميم ، ثم يصبُّ على قَيْس ، كما يصبُّ على كُلَيْب قوم جرير ؛ هجاءَه ، وكأنه أسوَاطُ عذَاب . وقد يعرض فى أثناء ذلك لمفاخر تَغْلِب يريد أن يُؤَيِّدَ خَصْمَ جرير الثانى ومناظرَه : الأخطل فيما يذهب إليه . وفى الصّف المقابل نجد جريراً حين ينظم نقيضته يعرض لمفاخر قَيْس ، وقومه من يَرْبُوع خاصة ، كأنه يريد أن يخرِجَهم من تميم ، ثم يتحول إلى قوم الفرزدق ، وخاصة مُجَاشعاً ودارماً ، فيرميهم بكل ما يستطيع من سهام الهجاء ، كما يَرْمى تَغْلِبَ وصاحبها

---

(١) النقائض ص ٤٣٠ .

(٢) انظر الأغانى ٨/٢٣ وما بعدها .

(٣) الشعر والشعراء ص ١٣ وانظر ابن سلام ص ٩٥ .

الأخطل بكل ما يستطيع من حجارة القَذْف .

وفى أثناء ذلك كله يسوق الطرفان المتناظران كل ما كان لتميم وقَيْسٍ وتَغْلِب من أيام فى الجاهلية والإسلام ، وبذلك تُصبح نَقَائضهما ، كما أصبحت نقائض جرير والأخطل ، وثائقَ مهمة فى تاريخ القبائل العربية ، فليس هناك من حرب وقعت فى الجاهلية بين هذه القبائل أو بين فروعها وغصونها ، وكذلك ليس هناك من حرب وقعت بينها فى الإسلام إلا ويَسْلُكُها الشاعران فى نقائضهما . ومن هنا كان شرح هذه النقائض لأبى عُبَيْدَةَ جامعها وشارحِها ليس أكثَرَ من عَرْضٍ واسع لأيَّام العرب ووقائعهم فى الجاهلية والإسلام وكلِّ ما اتصل بهذه الأيام والوقائع من حوادثَ وأشعار .

وإذن فنقائض جرير والفرزدق تعتمد على عُنْصُرٍ مهم ، وهو عنصر تاريخى يقوم على الثقافة بتاريخ القبائل القديم ، كما يقوم على الثقافة بتاريخها الحديث . وهذا العنصر فى النقائض قد يكون غريباً على أذواقنا الآن ، ولكن من غير شك له طرافته ، لأنه يضع تحت أعين الباحثين مادَّة كبيرة لتاريخ القبائل العربية .

وإذا كانت أذواقنا تَنْفِرُ من هذا القسم الآن ، فما لا ريب فيه أن جمهور المتفرجين فى المِربَد كان يُعجَبُ به ويَجدُ فيه مُتْعَة واسعة ، لأنه يعرض التاريخ القديم ، ويُجَسِّمُهُ للناس شعراً ، فكل ما لتميم وقَيْس وتَغلِب فى الجاهلية من أيام ووقائع ومفاخر ومثالب يُسَجَّل ، تُسَجِّلُه هذه الآلةُ اللاقطة ، آلةُ المناظرات الأدبية الحديثة عند جرير والفرزدق .

ومادة هذا التاريخ القديم فى النقيضة كان يقابلها مادة جديدة تتصل بالحياة الإسلامية الحديثة وما جَدَّ من ظروف سياسية . فهذان الشاعران الكبيران حين كانا يقفان للمناظرة فى المربد كانا يفكِّران فى أمر الجماعة الإسلامية وأمر بنى أمية وصِلَة القبائل بهم . فكانت نقائضهما تتعرَّض للشئون السياسية التى عاصَرَتْهما . فمثلا إذا ثارت قَيْس على الخلافة تعرَّض لها الفرزدق يُندِّد بها ويتشفَّى ، ويحاول أن يَضْرِبها وشاعرَها الضَّرْبَةَ القاضية على نحو ما نجد فى نقيضته الميمية :

تَحِنُّ بزَوْرَاءِ المدينة ناقتى   حَنِينَ عَجُولٍ تَبْتَغِى البَوَّ رَائِمِ

فقد ضمَّن هذه النقيضة مديحًا لسليمان بن عبد الملك وهجاءً لقَيْس وثائرِها في خراسان قتيبةَ بن مُسْلم الباهلي، وكان الذى قتله وكيع بن أبي سُود اليَرْبُوعى التَّيميمى، فاستغلَّ الفرزدق ذلك، وكتب هذه النقيضة، يُسَجِّل على قَيْس مساوئها ضد بنى أمية، وفى الوقت نفسه يسجل انتصار تَميم لهم كلما ثار ثائرٌ قيسيٌّ.

ومعنى ذلك أن النقائض عند جرير والفرزدق كانت تستمدُّ من الحديث، كما كانت تستمد من القديم، وكانت تتأثر الظروف السياسية المختلفة فى عصرهما. وليس هذا فحسب، فإنها كانت تتأثر عناصر إسلامية خالصة، ويتبين ذلك فيما يضمِّنها الشاعران من مديح وهجاء، فالفرزدق مثلا فى نقيضته الميميَّة هذه يقول لسليمان بن عبد الملك:

جُعِلْتَ لأهْلِ الأرْضِ عَدْلاً وَرَحْمَةً وبُرْءًا لآثارِ الجُرُوحِ الكَوَالِمِ

وفى كل مكان من هذه النقيضة نجد العنصر الإسلامى فهو فى غزلها يخاف يوم التخاصم أى يوم القيامة، وهو فى هجائها يذكر طغيان الحجاج ويشبِّهه بفرعون حين بَغَى، وطلب إلى هامَان أن يَبْنِيَ له صَرْحًا، لعله يَطَّلعُ إلى إله موسى، كما يشبهه بابن نوح حين أعرض عن دعوة أبيه، وقال: « سآوى إلى جَبَلٍ يَعْصِمنى من الماء . . . فكان من المُغْرَقين » وفى الوقت نفسه نراه يدعو قيسًا حين ثارت مع صاحبها فى خراسان مُشْرِكةً بربِّها، يقول فى ذلك:

ولمَّا رَأيْنَا المُشْرِكينَ يَقُودُهُمْ قُتَيبةُ زَحْفًا فى جُمُوعِ الزَّمَازِمِ
ضَرَبْنَا بسَيْفٍ فى يَمينكَ لَم نَدَعْ بِهِ دونَ بابِ الصِّينِ عَيْنًا لظالِمِ
بهِ ضَرَبَ اللهُ الذين تَحَزَّبوا ببَدْرٍ على أعْناقِهم والمَعَاصِمِ

فهو يجعل قَيْسًا مشركةً بربها كافرة بأنْعُمِه، ويجعل جموعها كجموع الزمازم، وهم المجوس الذين يجاهدهم المسلمون، وفى الوقت نفسه يجعل تَميمًا وصاحبها وكيع بن أبى سُود يضربان فى قتيبة وأنصاره بسيف الله، الذى ضرب به الرسول والمسلمون يوم بدْر .

ودائمًا نجد هذه العناصر الدينية فى نقائض الفرزدق، تارة يعدل إلى قصص من القرآن ، وتارة يعدل إلى بعض صُوَره أو بعض أساليبه ، كقوله فى جرير[١] :

ضَرَبَتْ عليكَ العنكبوتُ بنَسْجِها ... وقضَى عليكَ بهِ الكتابُ المُنْزَلُ

يريد أن بيتَ جرير فى الوهن والذل كبيت العنكبوت الذى ورد فى الذكر الحكيم ، إذ يقول جل وعز « وإن أوهَنَ البيوت لبيتُ العنكبوت » .

وفى مقابل ذلك كان جرير هو الآخر يستعين بالعناصر الإسلامية فى مديحه وهجائه جميعًا ، وقد مرَّ بنا فى حديثنا عن حياته مدى ما كان يُصَوِّر به الخليفة الأموى من خصال إسلامية ، كما مر بنا فى حديثنا عن نقائضه مع الأخطل كيف كان يهجوه بمسيحيته . وفى كثير من نقائضه مع الفرزدق يهجو الأخطل وتغلب معه ، ويَتَعَجَّبُ من وقوفه مع تغلب المسيحية ضد قيس المسلمة ، وفى ذلك يقول له[٢] :

فَخَرْتَ بقَيسٍ وافتَخَرْتَ بتَغلِبٍ ... فسوفَ تَرَى أيُّ الفريقينِ أرْبَحُ
فأمَّا النَّصارى العابدون صليبَهُم ... فخابوا وأمَّا المُسلمُون فأفلَحُوا

ويسترسل فى هجاء الأخطل بمسيحيته . أما الفرزدق فكانت فيه ثُغْرَةُ فِسْق واستهتار ، وكان جرير دائما يستغلُّها ، ويدخل منها فى هجائه له ، من مثل قوله[٣] :

أتيْتَ حُدودَ اللهِ مُذْ أنتَ يافِعٌ ... وشِبْتَ فما يَنْهاكَ شَيْبُ اللهازِمِ[٤]
تتَبَّعُ فى الماخورِ كلَّ مُرِيبَةٍ ... ولَسْتَ بأهْلِ المُحْصَناتِ الكَرائمِ

وفى كل مكان من نقائض جرير نجده يَرْمى الفرزدق من هذا الجانب ، ويَرمى قومه معه ، من مثل قوله فيه[٥] :

إنَّ المَواجِنَ من بناتِ مُجاشِعٍ ... مأوَى اللصوصِ ومَلْعَبُ العُهَّارِ
إنَّ البَعيثَ وعَبْدَ[٦] آلِ مُقاعِسٍ ... لا يَقْرآنِ بسُورةِ الأحْبارِ

---

(١) النقائض ص ١٨٣ .
(٢) النقائض ص ٥٠٦ .
(٣) النقائض ص ٣٩٦ .
(٤) اللهازم : أصول اللحيين .
(٥) النقائض ص ٣٤٠ .
(٦) يريد الفرزدق .

وتبيتُ تشربُ عندكلِّ مُقَصَّصٍ (١) ... خَضِلِ الأناملِ واكفِ المِعْصَارِ
لا تَفْخَرَنَّ فإنَّ دينَ مُجاشِعٍ ... دينُ المجوسِ تطوفُ حَوْلَ دُوَارِ (٢)

فقد زعم أن الفرزدق وصاحبه البَعِيث لايحفظان القرآن، ويقول الشُّرَّاح إنه يريد أنهما لا يُوَفِّيان بالعهود لقوله تعالى : « أَوْفُوا بالعقود » . غير أننا نرىأن جريراً يُطْلِقُ ولا يُقَيِّد، ويعم ولا يخصُّ ، فهو يريد أن الفرزدق وصاحبه لا يسيران على الصراط المستقيم ، وقد ذَهب يُصَوِّر فِسْقَ الفرزدق وملازمته لبيوت الخمَّارين من أهل الذمة ، ولم يلبث أن ادَّعى على مجاشع كلها أن دينها دين المجوس .

وواضح أن الهجاء على هذا النحو كانت تدخل فيه الخصال الإسلامية الجديدة ، فالشعراء يعتدُّون فى هجائهم بالمثل الأعلى الذى أراده الإسلام للمسلمين من طهارة وفضيلة وما يتصل بالفضيلة . ويضاف إلى ذلك النزعة الدينيةُ الخاصّةُ التى كان يُريدها الخلفاء فى مدائحهم ، حين يُلِمُّ بهم جرير والفرزدق ومن على شاكلتهما .

ومن هنا كنا نقول إن النقيضة عند الشاعرين كانت تحوى عناصر قديمة من الأيام والأمجاد الجاهلية وعناصر حديثة من الاتصال بالعصر والدين والسياسة . وكان على الشاعر الممتاز أن يوازن بين هذه العناصر كلها ، وأن يمثلها فى نقيضته ، وأن يضيف كل ما يمكن من سخرية بقبيلة صاحبه حتى يسقط به سقطة لا يقوم من بعدها أبداً . وليس هذا فحسب ، فنحن نجد كلا من جرير والفرزدق يتعلَّق بأسلوب القرآن الكريم وقصصه ، ويستمدُّ منهما فى نقيضته ، كما يتعلَّقان بالشعر القديم وما فيه من صُوَر ، وإنهما ليعتدَّان فى مديحهما وهجائهما بالخصال القديمة من كَرَم ومرُوءة وشجاعة ووفاء ، بجانب الخصال الإسلامية الجديدة ، فالقديم والجديد كانا يمتزجان بصور مختلفة .

وهذا هو معنى ما نقوله من أن هذه المناظرات الأدبية التى نهض بها الفرزدق وجرير فى النقائض كانت فنًّا معقداً لم يستطع الشعراء العاديون أن يُحْسِنوه لأن

---

(١) المقصص : الذىّ الذى جزت ناصيته . (٢) دوار : صنم .

من يُحسِنه يحتاج عقلية ممتازة قد ثقفت الطرق الحديثة فى الحوار والجدل ، ولها من القدرة على مَزْج القديم والجديد ما يُؤَهِّلُهَا للقيام على هذا العمل الفنى .

لم تعد قصيدة الهجاء إذن تَخُوضُ فى معانى محدودة ، بل أصبحت تتناول معانى واسعة ، أو قل معانى معقدة ، فيها جاهلى قديم ، وفيها إسلامى حديث ، وفيها هذا التلوين العقلى الذى لا بُدَّ للشاعر أن يكتسبه من بيئة العلماء الذين يتحاورون فى النِّحَلِ ومسائل القَدَرِ والإيمان .

وقد مرّ بنا فى غير هذا الموضع أن الفرزدق وجريراً كانا يتَّصِلان مباشرة ببيئات الفقهاء وما فيها من مناقشة وحِوَار ، وأن الفرزدق كان يُدْخِل فى شعره بعض المسائل الفقهية ، وأن جريراً كان يتَّصِل بأصحاب الحِيَل فى الفقه ومَثَّلْنا من شعرهما على هذا الاتصال .

وليس هذا فحسب ، فقد اتصل الشاعران بمناقشات القَدَر ، فكانا ينْزِعان نَزْعَة جَبْرِيَّة ، وقد أشرنا إلى هذا فى غير موضع . فإذا قلنا إن عقليتهما فى هجائهما كانت عقلية جديدة مَرَنَتْ على الحِوَار والحيلة فى الحوار لم نكن مغالين ، بل كنا مُطابقين للواقع .

وهذا مَعْنَى ما نزعمه من أن نقائض جرير والفرزدق تُمَثِّل عقلية جديدة ، وتُعَبِّر عن تطوُّر جديد فى الفكر العربى ، وما دعَمَه من طرق استدلال وبَرْهَنَة فى المسائل والمشاكل . ومن هنا كانت هذه النقائض تستقل عن الهجاء القديم ، إذْ أصبحت فَنًّا معقداً ، وهو تعقيد يقوم على المزج بين عناصر قديمة وأخرى جديدة ، كما يقوم على طُرُق الاستدلال الحديث ، التى كان يستمع إليها جرير والفرزدق فى بيئات الفقهاء والعلماء فى أثناء محاوراتهم ومناظراتهم .

والحق أن جريراً والفرزدق طَوَّرَا الهجاء القديم تطَوُّراً هائلا ، فقد أخرجاه من معانيه البدوية البسيطة إلى هذه المناظرات الواسعة فى حقيقة عشيرتيهما وحقيقة قَيْسٍ وتَمِيمٍ . وفى أثناء ذلك كانا يتناظران فى قيْس وتَغْلِب . وبذلك تتسع مناظراتهما فتشمل كل ما كان يَخُوض فيه جرير مع الأخطل وكل ما كانا يعرضان له ، ثم تنفرد بما كان بين كليب ومجاشع ، وقيس وتميم . وأيضًا فإن مُقام الفرزدق مع جرير فى البصرة جعل المناظرات بينهما تأخذ صورتها الكاملة . فبينما كانت نقيضة

الأخطل يحملها الرواة فى أغلب الأحيان إلى جرير ليردّ عليها ، وكان ذلك يأخذ مسافة من الزمن ، تَطُول وتَقْصُر ، كان الفرزدق يقف فى ناحية من المِربَد ، وحوله أنصاره ، فيُنْشِئ النقيضة أو يُلْقيها ، فيحملها الرواة إلى الحلقة الثانية المقابلة ، التى يقف فيها جرير مع أصحابه .

ومن هنا كانت نقائض جرير والفرزدق مناظرات بالمعنى الكامل . وكان يحدث أن يذهب أحدهما إلى حَلْقَة الآخر فيُلْقِى النقيضة التى أنشأها ، ولا ينتظر حتى ينقلها الرواة عنه . يدل على ذلك ما رواه صاحب الأغانى بصدَد النقيضة التى نظمها جرير فى هجاء الفرزدق والرّاعى النُّمَيْرِىّ ، إذ قال « لما أصبَحَ جرير ، وعرف أن الناس قد جلسوا فى مجالسهم بالمِرْبَد ، وكان يُعْرَفُ مَجْلِسُه ومجلسُ الفرزدق ، دعا بدُهْنٍ فادّهن وكَفَّ[1] رأسه ، وكان حَسَنَ الشَّعَر ، ثم قال : يا غلام أسرِجْ لى ، فأسرَجَ له حصانًا ، ثم قصد مجلس الفرزدق ومعه الراعى ، حتى إذا كان بموضع السَّلام قال : يا غلام قُل للراعى : أبعَثَكَ نِسْوَتُكَ تُكْسِبُهُنّ المالَ بالعراق ؟ أما والذى نَفْسُ جرير بيده لتَرْجِعَنّ إليهنّ بِمَيْرٍ[2] يسوءهنّ ولا يسرّهن ، ثم اندفع فيها فأنشدها ، فنكَس الفرزدق والراعى ، وأرَمّ[3] القوم ، حتى إذا فرغ منها سار إلى مجلسه »[4] . وفى هذا الخبر ما يدلّ على أن الشاعر كان يتَزَيَّى بأجمل ثيابه وأعْطَرِها ، كى يذهب إلى المِرْبَد للمشاركة فى هذه المناظرات .

ويروى الرواة أخباراً أخرى تتصل بهذه النقيضة ، تدلّ على الطريقة التى كانت تنتقل بها هذه المناظرات ، فهم يقصُّون أن جريراً حين حاول صُنْعَ هذه النقيضة قال لراويته المسمّى حُسَيْنًا : زِدْ فى دُهْن سراجك الليلةَ ، وأعْدِدْ ألواحًا ودواةً . فما زال جرير يصوغ البيت والحسين يكتب ، حتى انتهى من النقيضة[5] .

وفى هذا ما يدلّ دلالة واضحة على أن النقيضة لم تكن تُنْقَل عن طريق الرواية

---

(١) كف رأسه : جمع شعره وضم أطرافه .
(٢) المير : الطعام .
(٣) أرم القوم : سكتوا .
(٤) أغانى ٨/٣٠ .
(٥) النقائض ص ٤٣٠ وأغانى ٨/٣٢ .

الشفوية ، بل كانت تُنْقَلُ عن طريق الكتابة . وفى ابن سَلاّم أن جريراً لما فرغ من هذه النقيضة ، وأصبح بالمِرْبَد قال : يا بَنى تَمِيم قَيِّدُوا قَيِّدُوا ، أى اكتبوا[١] . وفى الشعر والشعراء أن « أبا عمرو بن العلاء كان فى حَلْقَة جرير ، وهو يُملى نقيضته فى الأخطل :

وَدِّعْ أمامَةَ حان منكَ رَحِيلُ ... إنَّ الوداعَ لِمَنْ تُحِبُّ قَلِيلُ »[٢]

فالرُّوَاةُ والناسُ كانوا يَجْلِسُون حول جَرِير فى المِرْبَد ، فيستمعون إلى ما يُنْشِد ، بل إلى ما يُمِلى ، إذ كانوا لا يكتفون بالسماع ، بل كانوا يُضِيفون إليه الكتابة .

ولا ريب فى أن الفرزدق كان يَتَّخِذ نفس الطريقة ، فهو يَقف فى الحَلْقَة الأخرى يُمْلى مناظرته على الرواة والناس ، وهم يكتبون . وفى الأغانى أنه توَعَّد خالدَ بن كلثوم الكَلْبى — وكان قد دوّن من شعره وشعر جرير — أنه سيهجوه إن لم يكتب نقائضه[٣] . وهذه كلها أخبارٌ ونصوصٌ تشهد بأن النقيضة كانت تُكْتَبُ حين إنشاد الشاعر لها ، وأكبر الظن أنه كان يُنْشِدُها من صحيفة مكتوبة أو صُحُف . وبعد فراغه من إملائها وكتابة الرواة لها كانوا يأخذونها إلى خصمه ، فيتناولها منهم ، ويتأمَّل فيها ، ثم يحاول الرَّدَّ عليها .

وربما كان فى هذا الصنيع ما يفسر لنا هذه الظاهرة المُطَّرِدَة فى النقائض ، فإن كل من يطلع عليها يلاحظ فى وضوح ضَعْفَ الشاعر الثانى الذى يُطْلَبُ إليه الرَّدُّ على زميله ، فإنه لم يكن يأخذ من الوقت ما يأخذه فى صُنْع نَقِيضته إذا كان هو البادئ أولا ، فالرواة والناس من حوله يتعجَّلونه ويستحثُّونه أن يَرُدَّ فى أقرب فرصة ، فيمسك بالنقيضة ويقرؤها ، ثم يحاول أن يَرُدَّ عليها دون رَيْث ، حتى يثبت مهارته وتفوّقه .

وليس لدينا أخبار كثيرة تدل على ذلك ، ولكن صاحب الأغانى احتفظ بخبر بالغ الدلالة ، فقد روى أن سُرَاقة البارِقِيَّ فَضَّل الفرزدق على جرير فى قصيدة

---

(١) ابن سلام ص ١٠٤ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٢٨٦ .

(٣) أغانى ١١/١٩ وما بعدها .

طويلة ، فأخذها بِشْر بن مروان وهو وال على العراق ، فأرسلها إلى جرير ليردّ عليها ، قال أبو عُبَيْدَة : حدّثنى أيوب بن كُسَيب عن أبيه ، قال : « كنت مع جرير ، فأتاه رسولُ بِشر بن مَرْوَان فدفع إليه كتابه ، وقال له : إنه قد أمرنى أن أوصِلَه إليك ، ولا أبْرَحَ ، حتى تُجيب عن الشعر ، فى يومك إن لقيتك نهاراً ، أو ليلتك إن لقيتك ليلاً . وأخرج إليه كتابَ بِشْر ، وقد نسَخ له القصيدةَ ، وأمره بأن يُجيب عنها » . ويَمضِى الخبَرُ ، فيذكر أن جريراً تناول القصيدة من رسول بِشْر ، ومكث ليلته يحاول أن يرد عليها ، وما زال يُجْهِد نفسه ، ويجتهد ، حتى نظم قصيدة فى هجاء سُرَاقة يقول فيها لبِشْر :

يا بِشْرُ حقَّ لوجهك التَّبْشيرُ هلاَّ قضيتَ لنا وأنتَ أميرُ

ولما فرغ منها أخذها الرسولُ ، ومضى بها إلى بِشر ، فقُرِئَت بالعراق ، وأفْحِمَ سُرَاقة ، فلم يَنْطِقْ بعدها بشىء من مُنَاقضته[1] .

ولا نشك فى أن هذا نفسه ما كان يحدث بين جرير والفرزدق ، فأحدهما إذا صنَع نقيضةً ، وأنشدها الناس ، أو قل أملاها الناس فى المِرْبَد ، كتَبَها الرواة ، ثم ذهبوا بها إلى الشاعر الثانى ، فدفعوها إليه ، كى يَرُدُّ عليها ويَنْقُضَها ، وأحيانًا كان الشاعر يَمُرُّ على خصمه فى مجلسه ، فلا يكلِّفه مَئُونَةَ الانتظار ، بل يُملى نقيضته عليه وعلى من حوله ، ويَمْضى إلى مجلسه ، ينتظر الرّدَّ على نحو ما صنَع جرير فى نقيضته ، التى أنشأها ضد الفرزدق والراعى .

ومعنى ذلك كله أن نقائض جرير والفرزدق كانت مناظرات مكتوبة ، ويؤكد ذلك الطريقةُ التى كانت تتَّبَعُ فى صياغتها وفى طريقة نظمها ، إذ نرى الشاعر يردُّ على معانى النقيضة الأولى مَعْنًى مَعْنًى ، ولا يتأتَّى ذلك من الوجهة العملية إلاّ إذا وُضِعَتْ النقيضة الأولى تحت بَصَرِه ، ونظر فى أفكارها فكرةً فكرة . ولعل هذا يحلُّ إشكال اتفاق الأسلوب أحيانًا ، فبعض الأبيات يكاد يكرَّرُ مع اختلاف بسيط ، ويظهر هذا خاصة فى الأبيات الجيدة التى يقولها الشاعر الأول ، فمثلاً فى نقيضة الفرزدق التى استهلّها بقوله[2] :

---

(١) أغانى ٨/٦٩ .
(٢) النقائض ص ١٨٢ .

إنَّ الذى سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لنا بَيْتًا دَعَائِمُهُ أعزُّ وَأطْولُ
بَيْتًا بَنَاهُ لنا المَلِيكُ وما بَنَى حَكَمُ السَّمَاءِ فإنّه لا يُنْقَلُ

نجد جريراً حين يحاول الردَّ عليها يتأثّر بهذين البيتين تأثراً يبلغ حدَّ السَّيْطَرَةِ عليه ، فيُضْطَرُّ أن يردَّ عليهما بصياغة ، تتفق مع صياغتهما ، فيقول[1] :

إن الذى سَمَكَ السماءَ بَنَى لنا عزًّا عَلاك فما لَهُ مِنْ مَنْقَلِ

ويتكرَّر هذا كثيراً فى النقائض . وفى رأينا أنه يدلُّ دلالة قاطعة على أن النقيضة الأولى كانت تُوضَعُ أمام الشاعر فى صُحُفٍ مكتوبة ، وكان يرد عليها ، ويَضْطَرِبُ إزاء بعض الأبيات ، فلا يستطيع نَقْضَها إلا باجْتِلاب نَفْسِ أسلوبها وصياغتها .

على كل حال تدلُّ صورةُ النقائض بين جرير والفرزدق وأخبارُها على أنها كانت تُكْتَب ، وأن الشاعر كان يَنْظُرُ فيها ، ثم يردُّ على خصمه أو زميله . وهذا هو الذى أعطى جريراً والفرزدق الفرصةَ كى يُحْسِنا فَنَّهما ، ويَنْهَضَا به لأنَّ الشعر حين يُكْتَبُ يكون شيئًا آخر من حيث التجويد الفنى يختلف عن هذا الشعر الذى يَعْتَمِدُ على الإنشاد والرواية الشفوية فحسب ، فالشاعر يأخذ فى قراءة النقيضة مُتَأنِّيًا مُتَثَبِّتًا ثم يردُّ على خصمه ، وقد ألَمَّ بجميع المعانى التى طرقها . وهو يعود إلى استعراضها والردِّ عليها معنى معنى وفكرة فكرة .

وعلى هذا النحو كانت النَّقِيضَةُ فى هذا العصر تُكْتَب كتابة ، وكان يُقْصَد بها إلى المناظرة واستخراج إعجاب الناس فى المِرْبَد ، وكان الشاعر ما يزال يلائم فيها بين تُرَاثٍ قديم من أيام القبائل ومفاخرها ، وبين تُرَاث جديد يُدْخِلهُ من الإسلام والحياة الدينية ، وما اشتبك معها من الحياة العقلية تارة ، ومن السياسة الحديثة وظروف القبائل الاجتماعية فى هذا العصر تارة أخرى .

فالنقيضةُ عند جرير والفرزدق تطوّرت تطوُّراً واسعًا من جميع النواحى ، فهى مناظرة تكتب من جهة ، وهى عَمَلٌ أدبىٌّ يَسْتَغْرِق جُهْداً معقّداً من

---

(١) النقائض ص ٢٢٥ .

جهة أخرى . وقد أخذت على هذا الأساس تتسع فصولها وتتسع موضوعاتها ، وتضطرب فى الشئون العقلية والدينية والسياسية التى صادفت الأمة العربية حينئذ .

وليس هذا كل ما يلاحَظ عليها ، فهناك ناحية لم نتحدث عنها حتى الآن ، وذلك أن جريراً والفرزدق حين نهَضَا بهذا العمل استعانا فيه بكل ما يمكن من توْليدٍ للمعانى وتركيبٍ فيها . أما من حيث التركيبُ ، فقد أدخلا عليها معانىَ جديدة اجتلباها من الإسلام ومن المسائل العقلية التى اصطرع فيها العلماء والناس ، وأما من حيث التوليد فإن المعنى الذى كان يدور فى نقائضهما كانا يَعْرِضَانه فى صور مختلفة .

أما ما يزعمه النقاد من أن جريراً يُكَرِّرُ أربعةَ معانٍ فى هجائه لا يكاد يعدوها ، وهى قَتْلُ مُجَاشِع للزُّبَيْرِ حَوَارِىِّ الرسول ، وأَنّ الفرزدق قَيْنُ ابن قَيْنٍ ، وما يَرْميه فى أخته جِعْثِن ، وما كان من نُبُوِّ السيف فى يده حين ضَرَبَ الرومىَّ ، فليس بصحيح . وقد ردّ عليهم ابنُ الأثير فى المثل السائر رَدّاً مُفْحِماً[١] ، إذ أتى بهجاء كثير لجرير يُثْبِتُ به أنه نَوَّعَ فى معانى هجائه ، وأنه لم يَقِف عند هذه المعانى الأربعة التى يَعُدُّونها . ولم يكتف ابن الأثير بذلك ، بل ذهب يَسْتَعْرِض معنى واحداً من المعانى الأربعة التى ذكروها ، وهو أن الفرزدق قَيْن ابن قَيْنٍ ، إذ كان لجدّه صَعْصَعَة قيونٌ كثيرة فى الجاهلية ، فاستغلَّ ذلك جرير فى سَبِّه وهجائه به .

ويلاحظ ابن الأثير أن هذا المعنى الواحد يُوَلِّده جرير على صور مختلفة ، فتارة يقول له إن أباك شُغِلَ عن المكارم بصناعة القيون على نحو ما نرى فى مثل قوله :

أَلْهَى أَبَاكَ عَنِ المَكَارِمِ والعُلاَ ‏ ‏ ‏ لَىُّ الكَتَائِفِ وارتفاعُ المِرْجَلِ[٢]

وتارة ثانية يقول له إن المِرْجَل والقِدْر المحطَّمَين يبكيان أباه فهو لا يَبْكِيه الناس ولا يَبْكِيه المَجْدُ ، وإنما تبكيه أدوات صناعته كما نرى فى قوله :

---

(١) المثل السائر لابن الأثير (طبع بولاق) ص ٤٩٠ وما بعدها .

(٢) الكتائف : جمع كتيفة ، وهى الضبة من حديد أو نحوه تشعب بها الآنية والقدور ، والمرجل : القدر .

يبكي صداه إذا تصدّع مِرْجَلٌ ... أو إن تثلّم بُرْمَةٌ أعشارُ[١]

وتارة ثالثة يقول له : إن أباك أورثك آلة القيون أو آلة الحدادة ، أما أبي فأورثني آلةَ الشجاعة أو رباط الخيل على شاكلة ما نرى فى قوله :

إذا آباؤنا وأبوكَ عُدُّوا ... أبانَ المُقْرِفَاتُ من العِرابِ[٢]
فأوْرَثَكَ العَلاةَ[٣] وأوْرَثُونا ... رِباطَ الخَيْلِ أفْنِيَةَ القِبابِ

والحق أن من يستعرض النقائض يستطيع أن يجد فى فكرة القين التى سبَّ بها جرير صاحبه أفكاراً كثيرة عُرِضَتْ معارضَ مختلفة ، فمن ذلك قول جرير[٤] :

ورَقِّعْ بجدِّكَ أكْيارَهُ ... وأصْلِحْ متاعَكَ لا تُفْسِدِ
وأدْنِ العَلاةَ وأدْنِ القَدُومَ ... ووَسِّعْ لكيرك فى المقْعَدِ

فهو ينصحه أن يُصْلِحَ ما أفسد الدهر من تركته، ويُنَبِّهُهُ إلى ما ينبغى أن تكون عليه العَلاةُ والقَدُومُ منه ، أمّا الكيرُ فيحسن أن يوسع له فى مكانه .

وفى كل مكان من نقائض جرير نجد هذه الصناعة المدّعاة على الفرزدق وآبائه تُعْرَضُ فى صور متنوعة ، فتارة يذكر له أن أدواتها دُفِنَت مع أبيه فى قبره ، من مثل قوله[٥] :

وُجِدَ الكَتِيفُ ذَخِيرَةً فى قبرِهِ ... والكَلْبَتانِ جُمِعْنَ والميشارُ

وتارة يذكر أن صناعته تُلَطِّخ جسده بروائحها الكريهة ، وتَخْلَعُ على أديمه لونَ السَّوادِ ، ولذلك تكرهه حَدْرَاءُ ، وتَنْفِر منه ، كما نرى فى قوله[٦] :

حَدْرَاءُ أنكرتِ القيونَ وريحَهُمْ ... والحُرُّ يَمْنَعُ ضَيْمَهُ الإنْكارُ
لمَّا رأتْ صَدَأَ الحديدِ بِجِلْدِه ... فاللونُ أوْرَقُ[٧] والبَنانُ قِصارُ

---

(١) البرمة الأعشار : القدر المحطم ، والصدى هنا : بدن الميت .
(٢) المقرفات : الهجان ، وهن اللاتى يولدن من عربية وغير عربى أو العكس . والعراب : الأصيلات فى العروبة .
(٣) العلاة : إداوة يحلب فيها .
(٤) النقائض ص ٨٠١ .
(٥) النقائض ص ٨٥٢ والديوان ص ٢٠٢ .
(٦) النقائض ص ٨٥٢ .
(٧) الأورق هنا : الأسود .

ودائمًا يلعب جرير بهذه الفكرة فى النقائض وما يتصل بها من بيان أثر الحدادة وأدواتها فى أنامل الفرزدق ومِرفَقَيه ، وإنه ليذكر له دائمًا الفأس والكِيرَ والكَتيفَةَ والميشار والكَلْبَتين ، ويعترف له بأنه يحسن صناعته وخاصة صناعة المَسَاحى والأداهم أو القيود ، يقول فيه[1] :

هو القَيْنُ وابنُ القَيْنِ لا قينَ مثلُهُ　　لِفَطْحِ[2] المساحِي أو لِجَدْلِ الأداهمِ

ويقف جرير كثيراً عند هذه الفكرة ، فإذا نبَا السيف فى يده حين ضرب الرومى تطرّق له من ذلك يزعم أنه لا يُحْسِنِ الضرب بالسيف ، إنما يُحْسِن صناعة الفُئُوس على نحو ما نرى فى قوله[3] :

عَنيفٌ بِهَزِّ السَّيْفِ قَيْنُ مُجاشعٍ　　رَفيقٌ بأَخْرَاتِ الفُئُوسِ الكَرَازِمِ[4]

وأكبر الظن أنه قد اتضح الآن كيف أن جريراً كان يُولِّدُ فى المعانى والصور . وإن من الممكن على هذا القياس أن يجمع شخص من النقائض كل ما جاء داخل فكرة كبيرة من أفكار الهجاء ، فتتكوَّن عنده دراسة طريفة لمقدرة جرير وصاحبه العقلية على التوليد فى المعانى وتوسيع طاقتها ، فى الظاهر يدور الشاعر حول فكرة عامة واحدة ، وفى الحقيقة يغوص فى هذه الفكرة ، ويستخرج كل ما يمكن من أصدافها ولآلئها .

وهذا ونحوه إنما جاء جريرًا وصاحبه من الرقى العقلى الذى أحرزاه على ضوء ما كانا يسمعان من المتناظرين والمتكلمين فى مسائل التشريع والإيمان والقَدَر ، وما رأياه عندهم من تشقيق الأفكار وتوليدها وسَبْر أغوارها ، فذهبا يُطَبِّقان ذلك على فَنِّ الهجاء ، فنقلاه هذه النقلة الكبيرة إلى مناظرات بديعة فى قَيْس وتَميم وكُلَيْب ودارِم وتَغْلِب وما إلى تَغلِب ، وأخضعا هذه المناظرات لكل الثروة العقلية التى لَقِفاها من العلماء فى أثناء بحثهم ومحاوراتهم ومداوراتهم ، كما أخضعاها لكل الظروف السياسية والاجتماعية التى أَلمَّتْ بعصرهما .

---

(١) النقائض ص ٧٦٦ .

(٢) الفطح : من قطع العود براه وعرضه .

(٣) النقائض ص ٤١٩ .

(٤) أخرات : جمع خرت ، وهو الثقب فى أعلا الفأس يوضع فيه الخشبة التى يمسك منها ، والكرازم : الفئوس ذات الرءوس الضخمة .

وقد أخذ كل منهما يجوب المعانيَ القديمة ، والمعانيَ الجديدة التى أحدثها ، ويحاول أن يَسْتَنْفِدَ كل مادتها وأن يستخرج منها كل ما يمكن من سخرية بصاحبه وبقبيلته . ومن هنا نتبيّن صعوبة هذا العمل الفنى وأنه لم يكن عملاً سهلا ، بل كان عملا صعبًا معقّداً غاية التعقيد ، ففيه هذا المزج بين العناصر القديمة والحديثة التى أكثرنا القول فيها ، وفيه هذا التوليد الواسع للمعانى والصور والأفكار .

ولعل فى كل هذا الذى قدمناه ما يوضح المنزلة الرفيعة التى كان يَنزِلها الفرزدق وجرير فى أذهان الناس خاصّتهم وعامّتهم لهذا العصر ، فقد كان الخلفاء والولاة يُجِلُّونهما ، وكذلك كان الناس من حولهما ، لهذا التفوق الفنى الذى رأوه فيهما ، إذ نَهَضَا بفنِّ الهجاء هذا النهوض ، واستطاعا أن يحقّقا له استقلالا واكتمالا لم يحقّقه شاعر من قبلهما ولا من بعدهما ، فركّبا قصائده هذا التركيب الذى وصفناه ، واستخرجا فيه كثيراً من الأفكار والمعانى ، فتنوّعت صُوَر الهجاء وطرائقه تنوّعاً شديداً .

وكان كل من يحاول الوقوف معهما فى هذا الميدان يسقط إلى الأبد ، ولم يثبت معهما فيه سوى الأخطل ، ولذلك كان يعدّه النقادُ ثالثَ الثلاثة الممتازين فى العراق بل فى العالم العربى كله ، حينئذ .

وقد تمّ هذا العمل وأحْكِم عند جرير والفرزدق ، فإن الأخطل لم يَعِش كثيراً ، وكان بعيداً عن العراق ، فكان لا يزور البصرة إلا لماماً . وهو عمل تَمَّ واكتمل فى هذا الملعب الكبير ، ملعب المِرْبَد ، وتحت أبصار النّظّارة ، الذين كانوا يَؤُمّونه فى هذا العصر .

٥

مقارنة

رأينا أن الإطار الذى وُضِعَت فيه نقائض جرير والفرزدق أكملُ وأدق من الإطار الذى وُضِعَت فيه نقائض جرير والأخطل بحكم طول المسافة التى شغلتها النقائض الأولى ، ثم بحكم أنها أخذت بين الشاعرين شكل مناظرات تامَّة .

ويظهر أن القدماء عرفوا ذلك، وأحَسُّوا به ، فعَنُوا بنقائض جرير والفرزدق عنايةً تتفوّق على العناية بأختها ، ويتضح ذلك فى الديوانين المنشورين للنقائض ، فديوان جرير والفرزدق أكثر انضباطًا من ديوان جرير والأخطل ، وقد اهتم أبو عبيدة به فشرحه شرحًا واسعًا ، عرّض فيه بالتفصيل لأيام العرب ووقائعها فى الجاهلية والإسلام .

ومع أن أبا عُبيدة اهتمّ بهذا الديوان ، فنظرةٌ فيه تدلُّ على أن عنايته به كانت محدودة ، إذ لم يُعْنَ بجَمْعِ النقائض جمعًا تاريخيًّا دقيقًا نستطيع أن نتبين فيه زمن النقيضة، بل نقيضةٌ متقدِّمة تسبق نقيضة متأخِّرة، وأيضًا فإنه ، على ما يظهر ، لم يجمع كل النقائض بين الشاعرين ، وإلا فكيف نفهم أن هذه الكمية القليلة من نقائض جرير والفرزدق هى كل ما قالاه فى نحو خمسة وأربعين عامًا .

ومن يَرْجِعُ إلى ديوان الشاعرين ، ويُقابل القصائد بعضها ببعض يستطيع أن يلاحظ أن هناك قصائد قيلَت فى الهجاء ، واختصَّت بزميله الذى يناقضه ، ولم تَرِد فى نقائض أبى عُبَيْدة ، مع أنّ مجرّد استعراضها يدل على أنها نقيضة ، وقد يمكن أن نجد ردَّها أو جوابها فى ديوان صاحبه ، وقد لا نجده ، ومع ذلك لا يكفى عدم وجود رد لها عنده للحكم بأنها لم تكن نقيضة ، فن الممكن أن يكون انصرف عن نَقْضِها ، ومن الممكن أن يكون قد نقَضَها ولم تصلنا نقيضته .

ونقائضُ جرير والفرزدق على عيوبها هذه أتَمُّ وأكملُ من نقائض جرير والأخطل ، والحقيقة أنها هى التى تَعبِّر عن هذه المناظرات تعبيرا أبْيَنَ وأوضح

بحكم قُرْب الشاعرين بعضهما من بعض ، بل بحكم جوارهما والتقائهما بأنصارهما يوميًّا فى المِرْبَد .

وليس هذا فحسب ، فنقائض جرير والفرزدق تتميَّز أيضًا بميزة مهمة ، هى أنها دارت بين شاعرين مسلمين ، اختلطا بالحياة الدينية والعقلية ، التى حاولنا أن نرسم خُطوطها فى الصفحات السابقة . وليس معنى ذلك أن الأخطل لم يتأثر بالحضارة الحديثة ، فقد كانت تحت بصره ، فتأثر بها ، ولكن فى صورة تخالف الصورة التى تأثر بها جرير والفرزدق ، فلم يكن مثلهما يستمع إلى وُعَّاظ البصرة وعلمائها ومَنْ يتحاورون هناك فى النِّحَل والمذاهب والمشاكل التشريعية والمسائل العقلية .

وأيضًا فإن العقل العربى كان دائم التطور فى هذا العصر ، وقد تُوُفِّى الأخطل قبلهما بنحو عشرين سنة ، فلَحِقا بعده زمنًا ارتقى فيه عقل الأمة العربية ضرُوبًا من الرقىّ ، وكان لذلك أثره فى عملهما وفى المواد التى كانا يؤلفانه منها . وكما نَما عقل الأمة نَما عقلهما ، وأخذت طاقتهما الفكرية تَتَّسعُ على مرّ الزمن وتَنْهض بأشياء لم تكن تنهض بها العقلية العربية فى القديم . ولهذه الأسباب كلها كانت نقائض جرير والفرزدق وخاصة الأخيرة منها ، أكثر تنظيمًا ومهارة .

وإذا أخذنا نقارن بين جرير والأخطل فى نقائضهما لنرى أيهما يتفوّق على صاحبه وجدناهما يتهاجيان ، كما قدمنا ، بعناصر قديمة من الأيام والأمجاد الجاهلية وعناصر جديدة يستمدّانها من العصر والسياسة . والأخطل من هذه الناحية لا يتّصل بالعناصر الإسلامية مباشرة ، ولكنها تتسرّب إليه ، فهو حين يمدح عبد الملك مثلا لا يفكر فى ملحه بالتقوى وقراءة القرآن الكريم على نحو ما يصنع جرير ، وهو لا يمدّ أطناب المسألة إلى نَزْعَة أمَوِية تقابل النَّزْعَةَ الشِّيعِيةَ على نحو ما صوّرنا ذلك عند جرير ، ومع هذا تتسرّب إليه بعضُ العناصر ، فيصف عبد الملك بأنه خليفةُ الله أو يصفه بأنه إمامُ المسلمين ونحو ذلك .

على أن الأخطل إذا قَصَّر من حيث العناصر الإسلامية ، لأنها لم تكن مهيَّأة له ، ولم يكن يفهمها كما كان يفهمها جرير ، فإنه لم يُقَصِّر من حيث

الاتصال بالعصر والظروف السياسية . ويتبيّن ذلك فى نقيضته « خفّ القطينُ » التى هلّل لها عبد الملك وكبّر ، فقد سبق أن قلنا إنه ملحه فيها من حيث هو خليفة للمسلمين . ولم يقف عند هذا المعنى طويلا ، لأنه كما قلنا لم يكن يحسّه إحساساً عميقاً . وليس هذا الذى يلفتنا ، وإنما يلفتنا ، أنه ملحه بعناصر جديدة استمدها من الحياة الحاضرة أو الحياة الحديثة إذ نراه يضيف إلى ذلك مديحَ عبد الملك فى أثناء حربه لمصعب بن الزبير . وبذلك استطاع أن يمدح عبد الملك قائداً يحسن تنظيم الجيوش وتنسيقها . فالعقل الدائب الذى شاهدناه عند جرير فى توليد المعانى وتجديدها نجده عند الأخطل ، وإن كنا نلاحظ أن عقل جرير كان أكثر توليداً .

وكان الأخطل يحاول دائماً أن يُضيّق على جرير بانتصاره لقيْس ، فيذكر خروجها على طاعة الأمويين وانتقاضَها عليهم ، ويُشيد فى الوقت نفسه بتغْلِب وموقفها من الخلافة ونُصْرتها لبنى أمية ، فيضطرب جرير حين يحاول الردّ عليه .

وكان جرير يتصدّى له من جانب آخر يحاول أن يَشُدّ على خناقه منه ، وهو جانب مسيحيته ، وقد لعب هذا الجانب دوراً بعيداً فى نقائض جرير مع الأخطل ، وكان هو نفسه يعترف به ، فالرواة يحدثون عنه أنه قال : أُعِنْتُ على الأخطل بكفره[1] وكان معاصروه يشعرون بذلك ، فقد روى الرواة عن عمر ابن عبد العزيز أنه قال : « إن الأخطل ضَيَّقَ عليه كُفْرُه القولَ ، وإن جريراً وَسَّع عليه إسلامُه قولَه »[2].

ولا نستطيع فى الواقع أن نزعم لأحدهما تفوُّقاً تامًّا على صاحبه فى نقائضه ، لأن المسألة كانت تُرْهَن بالظروف ، وفى العادة يتفوّق صاحب النقيضة الأولى . وقد تفوّق الأخطل على جرير فى نقيضته « خف القطين » تفوقاً ظاهراً ، لأنه كان البادئَ ، ولأنه كان يملك زمام الموقف ، فاستغلّ خصومة قيْسٍ لبنى أمية وعلى رأسهم عبد الملك استغلالا واسعاً . وعلى العكس من ذلك تجنّب جرير فى رده عليه موقف قيس ، ولم يستطع أن يمدح عبد الملك على نحو ما صنع الأخطل . فالظروف

---

(١) أغانى ٢٩٩/٨ . (٢) أغانى ٣٠٦/٨ .

السياسية التي صاحبت قيسًا كانت أحيانًا تُحدِثُ اضطرابًا فى جرير وفى نفسيته ، وخاصة أنه كان يريد الاتصال ببنى أمية ، وأن يكون شاعرهم الأول ، فإذا تحدث الأخطل عن عِصيان قيس أحسّ كأنما ألقمه حَجَراً ، فيتعثر فى أثناء ردّه ويضطرب فنونًا من التعثر والاضطراب .

وكذلك كان الفرزدق معه فى هجائه يستغل عِصيان قيس وخروجها على الطاعة ، وكان ذلك يُحدِث أزمة محقّقة فى نفسية جرير ، وانضم إلى ذلك أنه كان من أسرة متواضعة بينما كان الفرزدق من أسرة أرستقراطية . ومن هنا كان يشعر بالصَّغار أمامه ، وعلى العكس كان الفرزدق يشعر بغير قليل من الكبرياء والاستعلاء والغَطْرَسَة .

وأكبر الظن أن هذين العاملين هما اللذان أتاحا للفرزدق أن يتقدم فى نقائضه على جرير ، وربما كان من عوامل ذلك أيضًا أن جريراً لم يكن من قيس نفسها فدفاعه عنها لم يكن صادراً من قلبه على نحو ما كان يصدر دفاع الفرزدق عن تميم .

على كل حال من يقرأ نقائض الفرزدق وجرير يحس تفوق الفرزدق على صاحبه ، ولعل ذلك ما جعل جريراً يعمد إلى الهجاء الشخصى أكثر من صاحبه فهو يُكْثِرُ من السِّباب والشتائم ، بينما يتوقّر الفرزدق ويترفّع ، عن أن ينحدر معه إلى السَّفْح الذى يَهْوِى إليه .

وينبغى أن لا نفهم من ذلك أن جريراً يتخلف تخلفًا عامًّا فى شعره عن صاحبه ، فإن من يترك النقائض إلى ديوانيهما ، ويبحثهما فيهما ، ويوازن بين شاعريّتهما ، يجد جريراً فى ديوانه أشعر من صاحبه . وكأن جريراً كان يسقط أو يضعف أمام الفرزدق فى المناظرات لعوامل نفسيّة طارئة ، فإذا فَصَل عن هذه العوامل وأصبح حُرًّا استعاد كل مقدرته ، وأصبح أشْعَرَ من صاحبه .

وقد حاول القدماء كثيراً أن يَحكموا بينهما ، ووسَّعوا الحكومة إلى الأخطل ، فذهبوا إلى أن الفرزدق يتفوّق فى الفخر [١] ، بينما يتفوّق الأخطل فى المديح ونَعْت الخمر [٢] ، أما جرير فأعطوه السَّبْق فى الهجاء والغزل والرثاء [٣] .

---

(١) ابن سلام ص ٨٧ .

(٢) ابن سلام ص ١١٣ والأغانى ٨/٣٤ ، ٨/٢٨٦ .

(٣) ابن سلام ص ٨٧ والأغانى ٨/١٠ وكذلك ٨/٣٨ .

وهذه الأحكام تحتاج فضْلاً من البحث والدراسة ، أما أن الأخطل يتفوّق فى نَعْت الخمر ، فإنه مما لا ريب فيه ، لا لأن جريراً والفرزدق كانا يَنْعَتانها فلا يوفّقان ، بل لأنهما لم يحاولا هذا النّعْت ، فقد منعهما الإسلام منه ، وإن لم يمتنع شعراء مسلمون آخرون من ذلك[1] . أما هما فإنهما نفرا منه ، فلم يُقْبلا عليه ، ولا اشتغلا به ، على عكس الأخطل فإنه كان مسيحيًّا ، وكان صَبًّا بالخمر ، فأكثر من وَصْفها ونَعْتها ، وأجاد فى ذلك على نحو ما نرى فى قوله[2] :

صَريعُ مُدَامٍ يَرْفَعُ الشَّرْبُ رَأسَهُ ... لِيَحْيَا وقد ماتَتْ عظامٌ ومَفْصِلُ
نُهاديه أحْيانًا وحِينًا نَجُرُّهُ ... وما كادَ إلا بالحُشاشَةِ يَعْقِلُ

على كل حال يتقدم الأخطل صاحبيه فى نَعْتِ الخمر ، لا لأنهما أجرَيا معه فيه ، وسبَقهما ، ولكن لأنه انفرد به . أما فى المديح ، فقد يكون ذلك صحيحاً إلى حد ، إذ كان الأخطل يجوِّد فى المديح ، وكان ما يزال ينوِّع فى معانيه على ماتقدم فى غير هذا الموضع . ولا شك فى أنه كان يتقدّم فى هذا الفن الفرزدق لأن نفسية الفرزدق كانت منطوية على التمرد ، كما قدمنا ، فهو لا يُعْجَبُ إلا بقومه ، وهو يثور على كل من عداهم . لذلك كان غَيْرَ مُهَيَّأٍ من الوجهة النفسية للتفوق فى المديح .

وإذن فالمقارنة فى المديح ينبغى أن تكون بين الأخطل وجرير ، وإذا ذهبنا نقارن بينهما وجدنا الأخطل يُنَوِّع فى مديحه ، ولكن تنويعه ينصبُّ فى أكثره على الإفادة من العناصر القديمة ، فهو يمدح بالخصال المعروفة عن العرب من كرم وشجاعة ووفاء ومروءة وحِلْم وصبر على المكروه ، ويقف فى أكثر مديحه عند ذلك . أما جرير فإنه يُفيد فى مديحه من العناصر الإسلامية الجديدة ، فيخلع على الخلفاء والولاة صفات دينية كثيرة من إقامة العدل بين الناس ومن عِصْيان داعى الهوَى والاهتداء بالكتاب والسنة وإقامة الفرائض والحدود . وقد تحول الجزء الأكبر من مديحه فى الخلفاء إلى دفاع حارٍّ عن دعوة الأمويين وتفضيل حِزْبهم على الحزب الشيعى وغيره من الأحزاب ، وذَهَبَ يُسْبِغ عليهم كل ما يسبغه الشيعة على

(١) انظر على سبيل المثال ترجمة ابن أرطاة فى الأغانى ٢/٢٤٢ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٣١٠ .

أئمتهم من خصال وصفات .

ومعنى ذلك أن تنويع الأخطل فى المديح ينصبُّ فى أغلبه على الإفادة من المعانى الجاهلية القديمة ، وكان القدماء أنفسهم يشعرون بذلك ، فأبو عبيدة يقول : إن الأخطل أشبه الثلاثة بالجاهلية(١) .

فإذا نظرنا إلى معانى المديح وصلتها بالجديد الإسلامى قدمنا جريراً على الأخطل ، وإذا نظرنا إلى الصياغة وجزالتها ومحاولة استنفاد المعانى والصور القديمة والتوليد فيها قدمنا الأخطل على صاحبه ، كما حكم بذلك القدماء .

أما الفرزدق وما يقولون من سَبْقه لصاحبيه فى فن الفَخْر فصحيحٌ إلى أبعد حد ، إذ كان من أسرة ذات شَرَف وسِيادة ، وكانت نفسه تمتلىء بمكانة أسرته امتلاء لا نهاية له . ولم يكن الأخطل من أسرة تشبه أسرته ، وكان جرير من أسرة متواضعة ، فلم تكن لكل منهما النفسيَّة العنيفة التى اشتمل عليها الفرزدق ، وما انطوى فيها من شُعُور بالعزة لا يكاد يُحَدّ ، وشعور بالكرامة لا يكاد يَنْتَهى ، فلم يستطيعا أن يُحَلِّقا معه فى آفاق الفخر التى حلق فيها ، إذ كانت أجنحتهما من الضعف بحيث لا تستطيع أن تبلغ شَأْوَه ، وارجعْ إلى شعره فستجد قطعاً كثيرة من الفخر تتألقُ فيه تألقًا ، من مثل قوله(٢) :

لنا العزّةُ الغلباءُ والعَدَدُ الذى ... عليه إذا عُدّ الحصى يتَحَلَّفُ
ولا عزّ إلا عِزُّنا قاهرٌ لهُ ... ويَسْألُنا النِّصْفَ الذليلُ فيُنْصَفُ
تَرَى الناس ماسِرْنا يَسِيرون خَلْفَنَا ... وإن نحن أوْمَأْنا إلى الناسِ وقَّفوا

ومثل هذه القطعة هو الذى كان يرفعه على جرير فى نقائضه ، إذ كان يشعر ضده بغطرسة شديدة ، فيرميه بحقائق آبائه وأمجاد عشيرته ، وكأنها سهام يُصَوِّبها إلى نَحْره ، واستمعْ إليه يقول له فى إحدى نقائضه واصفًا قومه(٣) :

الأكْثَرُونَ إذا يُعَدُّ حَصَاهُمُ ... والأكرمـون إذا يُعَدُّ الأوّلُ
حُلَلُ الملوكِ لباسُنا فى أهْلِنـا ... والسابغاتِ إلى الوغَى نَتَسَرْبَلُ

---

(١) أغانى ٨/٢٩٢ .
(٢) النقائض ص ٥٧١ .
(٣) النقائض ص ١٨٧ .

أَحْلامُنا تَزِنُ الجبالَ رَزَانَةً وتَخالنا جِنًّا إذا ما نَجْهَلُ
فادْفَعْ بكفّكَ إن أردت بِناءَنا ثَهْلانَ ذاالهضباتِ هل يتحلحَلُ[1]

ويُسرف الفرزدق فى مثل هذا الفخر ، ويملأ شعره ونقائضه ضجيجاً وصياحاً بآبائه وعشيرته على هذا النحو . ومن أجل ذلك كان يتفوق تفوّقاً ظاهراً على صاحبيه فى هذا الفن من فنون الشعر .

وإذا تركنا فن الفخر إلى فن الهجاء ، أو قُل إلى قطع الهجاء فى النقائض وقارنّا بين الثلاثة وجدنا جريراً أشد عنفاً من صاحبيه فيها ، فهو حين يصل إليها يشبه الطائر الجارح حين ينقضُّ على فريسته ، يريد أن لا يُبْقى فيها شيئاً ، ولعل ذلك ما جعله يلجأ فى أحوال كثيرة إلى هتْك الحُرُماتِ والأعراض كأنه يريد أن يُمزّق خصمه تمزيقاً .

ولم يكن الأخطل والفرزدق على هذه الصورة من العنف ، وارجعْ إلى نقائض الأخطل فستجده يستمر له غير قليل من شَيبه ووقاره ، وكذلك الفرزدق حين يناقض أو يهجو يستمرّ له شيء من الاعتداد بنفسه وبكرامته . ومن هنا كانا لايعمدان إلى السب والقَذْف على نحو ما يعمد جرير ، فهما يَحْتَشِمان، أما جرير فلم يكن يعرف حِشْمةً ولا ما يشبه الحشمة ، بل كان ينصبُّ انصباباً على خصمه ، يريد أن يطعنه الطعنة المُصْمِيَة .

ولعلنا نفهم الآن ما يقوله الرواة من أن الفرزدق كان يُنْتَقَعُ لونُ وجهه حين يقول له قائل : إن جريراً أنشد اليوم فى المِرْبَد قصيدة[2] ، إذ كان ينتظر دائماً أن يَقْذِفَه جرير فى أثناء قصيدته أو نقيضته بحَجَر غليظ من حجارته يَجْرَحُهُ جُرْحاً بليغاً .

وإذن فجرير كان يتفوّق على صاحبيه فى الهجاء ، ولكن ليس معنى ذلك أنه كان يتفوّق عليهما فى النقائض ، فالنقائض تحتوى موضوعات مختلفة . حقّاً هو والأخطل كانا فَرَسَيْ رهان ، وكان يتفوق منهما فى العادة من يكون صاحب النقيضة الأولى لأنه حرٌّ ، ولأنه لا يتقيد بمعان خاصة ولا بأوزان وقواف خاصة . أما

(١) ثهلان: جبل. يتحلحل: يزول ويتحرك .
(٢) ابن سلام ص ٨٦ .

مع الفرزدق فالمسألة تختلف ، لأن الفرزدق يتفوق عليه فى مجموع النقيضة بفضل هذا الشعور العميق بآبائه ، وما كان يحسه تلقاءه من تَسَامٍ وكبرياء . فجرير مع إقذاع هجائه ومرارته وتفوُّقه فى هذه المرارة لا يتقدم الفرزدقَ فى مجموع النقيضة ، لأن نفسية الفرزدق كانت أقوى من نفسيته .

وشأن جرير فى الغزل شأنه فى الهجاء كان يسبق صاحبيه سبقًا لا يدع مجالا للشك والريب ، فقد شهد به معاصروه وشهد به نقاد العصور التالية . ومعنى ذلك أننا إذا فرَّقْنَا النقيضة قطعًا وجدنا جريراً يسبق صاحبيه فى الهجاء والغزل أما إذا جمعناها جمعًا ، فإن الفرزدق هو السابق المُجَلِّى .

على كل حال كان جرير يتفوَّق فى الغزل كما كان يتفوق فى الهجاء ويلاحظُ ذلك فى وضوح مَنْ يرجع إلى ديوانه وديوانَىْ صاحبيه . وربما كان تَخَلُّفُ الأخطل فى الغزل راجعًا إلى أنه كان متكلفًا فى شعره ، يسعى به إلى الصورة التى نعهدها عند شعراء الجاهلية من أمثال زُهَير والنَّابِغَة .

ومن أهم ما يحتاج إليه الغزل أن يكون طبيعيًّا صادراً عن شعور حقيقى ، لا عن تكلف وافتعال ، ولهذا لم يستطع الأخطل أن يتفوق فى هذا الفن من فنون الشعر العربى لأنه لم يُحَدِّثنا فيه حديث العاطفة الطبيعية ، وإنما حَدَّثنا فيه حديث العاطفة الصناعية ، إذ لم يكن يُعَبِّر عن شىء حقيقى يشعر به إنما كان يعبر عن الصناعة التقليدية ، أما جرير فكان على نَقِيضِه يعتمد على مشاعره وإحساساته فى غزله ، وينطلق فى التعبير عن عواطفه ووجداناته ، ومن هنا كنا نُحِسُّ عند الأخطل بالجفاف والجمود ، بينما نحس عند جرير أنه يتحوَّل إلى شعور وعواطف خالصة .

وحَظُّ الفرزدق فى هذا الفَنِّ فَنِّ الغَزَل وما يَنْطوى فيه من نَسِيب وتَشْبِيب ليس أسْعَدَ كثيراً من حَظِّ الأخْطَل . حقًّا إنه لم يكن يتكلَّف تكلفه ، ولم يكن يُفْنِى شخصيته فى القدماء من أمثال زهير والنابغة على نحو ما أفْناها الأخطل ، ومع ذلك فإنه لم ينجح فى هذا الفن ، على الرغم من أنه كان فاجراً مستهتراً ، بل كان زيراً للنساء .

وفى رأينا أن الفرزدق لم ينجح فى الغزل ، لأن نفسه كانت غليظة ولم تكن رَقِيقة ، فقد كانت خَشِنَة جافَّة ، لم تُطْبَع على شىء من اللين ، إنما طُبِعَت

على التمرد والقسوة وعدم الخضوع والاستكانة ، فهى نفس — فى قرارها — جاهلية ، لم تتهذَّب ، ولم تَلِنْ ، ولم تَصْفُ .

والغزل لا ينجح فيه إلا صاحبُ النفس اللينة الصافية ، ولذلك تقدمه جرير إذ كانت نفسه لينة حقًّا ، صافية حقًّا ، وقد جاءه ذلك من أنه كان مُتَدَيِّنًا يذوب فى الإسلام ، فصفّى الإسلام جَوْهَرَ نفسه ، وأعدَّه لينبغ فى هذا الفن ، ويتفوق على زميله الذى كان يرتبط بالعادات والطباع الجاهلية .

واتفق مع ذلك أن جريراً كان من أسرة فقيرة ، بينما كان الفرزدق من أسرة شريفة ، فكان ذلك سبباً لأن يشعر جرير فى أعماقه بشىء من الحزن ، وخاصة أن الفرزدق دائم التمدُّحِ عليه بآبائه وأمْجَادهم فى الجاهلية .

ولا نشك فى أن هذا الحزن الذى كان يتسرب إلى قلبه كان ذا أثر بعيد فى صفاء نفسه وإرهافها وتهيئتها لأن يتفوَّق فى الغزل والتشبيب ، لأن الحزن من عادته أن يَجْلُو النفسَ ويَجْلُوَ ما يَصْدُر عنها ، وخاصة إذا كان شَكْوَى من حَبِيب .

وكل من يقرأ غزَل جرير ومقدماته لنقائضه وقصائده يشعر أنه يقرأ لنفسٍ غير مبتهجة ، فليس له ما يبتهج به فى الآباء ، وإنما له ما يُؤْذِيه ، وما يشعر معه بالقصور والحزن . ولعل ذلك ما جعله يطيل مقدمات نقائضه مع الفرزدق ، فإنه كان يُودِع فيها إحساساً عميقاً بحزنه ، وينفِّس فيها عن شعور النقص الذى يشعر به إزاء خصمه . وعلى العكس كان الفرزدق يُقَصِّرُ هذه المقدمات ، وكان فى بعض الأحيان لا يأتى بها ، بل يهجم مباشرة على فخره ، وتَعْدَاد مناقب آبائه .

فالنَّفْسِيَّتَان كانتا مختلفتين ، نَفْسِيَّةٌ تَفْنَى فى الأمجاد والمناقب القديمة ، ونفسية تأسَى وتحزن ، لأنها لا تجد لها أمجاداً ومناقب تعتزُّ بها . وفى الوقت نفسه ترتبط أولاهما بالعادات والطباع الجاهلية ، فهى نفس غليظة ، بينما ترتبط الثانية بالحياة الإسلامية الحديثة ، فتصفِّيها ، وتهذِّبها ، وتسمو بها ضروباً من السُّمُوِّ . وكلُّ ذلك هَيَّأ جريراً لأن يتقدم صاحبه فى هذا الفَنِّ الرقيق من فنون الشعر ، واستمعْ إلى قوله فى بعض غزله[1] :

---

(١) أغانى ٨/٥٩ والديوان ص ٥٧٨ .

إنّ الذين غَدَوْا بِلُبِّكَ غادَرُوا ... وَشَلاً بِعَيْنِكَ ما يَزالُ مَعِينا
غَيَّضْنَ من عَبَرَاتِهِنَّ وقُلْنَ لى ... ماذا لَقِيتَ مِنَ الهَوَى ولَقِينا

وواضح ما فى هذين البيتين من بكاء ودموع ، وهما يَصْدُرَان من نفس يَشُوبُها غير قليل من الحزن ، واستمعْ إليه يقول مرة ثانية(١) :

إن العيونَ التى فى طَرْفِها مَرَضٌ ... قَتَلْنَنَا ثم لم يُحْيِينَ قَتْلانا
يَصْرَعْنَ ذا اللبِّ حتى لاحَرَاكَ به ... وهنَّ أضعفُ خلقِ الله أركانا
أتْبَعْتُهُمْ مُقْلَةً إنسانُها غَرِقٌ ... هل ما ترى تاركٌ للعَيْنِ إنسانا

فإنك ترى غزله يَجِيش بالعاطفة ، ويمسح عليه حُزْن غير قليل . وهكذا جرير دائمًا فى غزله يشكو ، ويرقُّ ويَلِين هذه الرقة واللين .

ولم يكن الفرزدق مُهَيَّأً من الوجهة النفسية ليصدر عنه مثل هذا الغزل الرقيق الصافى ، ولعل من الطريف أنه كان يعترف لجرير بِسَبْقِه فى هذا الفن ، وكان يقول : « ما كان أحْوَجَه مع عَفَافه إلى صلابة شعرى ، وأحْوَجَنِى مع شهواتى إلى رقّة شعره »(٢) .

فالفرزدق يعترف لجرير برقة شعره وغزَلِه ، وأنه لا يستطيع أن يحقق ذلك لنفسه ، فشعره صَلْبٌ ، فيه غِلَظ وخشونة . ومن هنا كان لايستطيع أن ينجح فى الغزل الذى يحتاج دِقّةً فى الشعور ، ورقة فى الإحساس ، واستمعْ إلى جرير يقول(٣) :

بنَفْسِي مَنْ تجنُّبُهُ عزيزٌ ... علىَّ ومَنْ زِيارَتُهُ لِمَامُ
ومَنْ أمْسِي وأصْبِح لا أراهُ ... ويَطْرُقُنى إذا هَجَعَ النِّيَامُ

فإنك تشعر حقًّا بهذه الرقة التى يشير إليها الفرزدق ، وهى رقة كان عفافُه أحدَ أسبابها لا كما ظنَّ الفرزدق أن العفاف يقتضى الخشونة ، بل هو يحدث من الطُّهْرِ فى النفس والتسامى مايجعلها تصفو ، وتلين ، وتتحول إحساسًا وشعورًا خالصين . على كل حال كانت نفس جرير نفسًا لينة رقيقة ، وكانت نفس الفرزدق

---

(١) أغانى ٨/٣٩ .
(٢) أغانى ٨/١٢ .
(٣) الديوان ص ٥١٢ .

نفسـاً خشنة غليظة ، فأتاح ذلك لجرير أن يبزّه ويتفوق عليه فى هذا الفن من الغزل وما يندمج فيه من نسيب وتشبيب .

وكما يتفوق جرير على صاحبيه تفوقاً واضحاً فى الهجاء والغزل يتفوق عليهما أيضـاً فى الرثاء ، لأن الرثاء كالغزل يحتاج وَفْرَةً فى الشعور وصدقاً فى الإحساس ، فإذا اتفق أنه يصدر من نفس محزونة كان ذلك عاملا آخر فى إحسانه والبراعة فيه .

وقد قلنا إن الأخطل كان متكلفاً فى شعره ، لا يصدر فيه عن طَبْعٍ ولا ما يشبه الطَّبْع ، فطبيعى أن لا يتفوّق فى هذا الفن ، وكذلك كان الفرزدق غليظاً جافياً ، فيه صلابة ، وفيه خشونة ، فكان من الطبيعى أيضـاً أن لا يتفوق فيه ، إنما يتفوق فيه جرير ، الذى رقّق مشاعره الإسلام ، والذى طبع بؤسُ أسرته نفسَه بطابع حزين ، واستمعْ إليه يقول فى رثاء زوجه أمّ حَزْرَة[1] :

لولا الحياءُ لعـادنى استعبارُ ... ولَزُرْتُ قَبْرَكِ والحبيبُ يزارُ
ولَهِتْ قلبى إذ علَتْنى كَبْرَةٌ ... وذَوُو التَّمائمِ من بَنيكِ صغارُ
ولقد أراكِ كُسيتِ أجملَ منظرٍ ... ومعَ الجمـالِ سكينةٌ ووقارُ
صَلَّى الملائكةُ الذين تُخُيِّرُوا ... والصالحون عليكِ والأبرارُ
لا يَلْبَثُ القُرَناءُ أن يتفرقوا ... ليلٌ يَكُرُّ عليهمُ ونهـارُ

وهذا رثاء يَفيض أسى وحزناً ولوعة وحسرة على زوجه أم حَزْرَة ، التى كان يتغزل فيها غزلا عَذْباً ، فلما توفيت أخذ يرثيها رثاء حارًّا ، ولعل رثاءه فى ابنه سَوَادة أشدّ حرارةً ، فقد كان يَبْكيه بكاء مُرًّا ، واسمعه يقول فيه[2] :

قالوا نصيبَكَ من أجْرٍ فقلتُ لهم ... كيف العَزَاءُ وقد فارقتُ أشْبَالى
ودَّعتَنى حين كفَّ الدهرُ من بَصَرى ... وحين صِرْتُ كعَظْمِ الرِّمَّةِ البالى

فنفسه تتساقط أنفساً على فَلْذَةِ كبده وسُوَيْداء فؤاده ، فهو ينوحُ عليه نُوَاحاً لا ينقطع ، ويعزّيه الناس ، ويذكّرونه ثواب الصبر ، فلا يزيده ذلك إلا نُوَاحاً وحزناً .

(١) الديوان ص ١٩٩ .
(٢) الديوان ص ٤٣٠ والأغانى ٣/ ٢٢٠ .

ومن يقرأ ديوان الفرزدق لايستطيع أن يقف على مثل هذا الرثاء، لأن نفسه لم تكن مفطورة على الحزن ولم تكن مهيأة لأن تحزن ، فهى نفس غليظة جافة ، ويتندر الرواة عليه، فيقولون إنه حين توفيت زوجه النوار لم يجد النائحة شعراً له ينوحون به عليها ، فناحوا بشعر جرير السابق فى رثاء زوجه [(١)] .

وأكبر الظن أنه قد اتضح لنا الآن ما يتميز به كل شاعر من الأقطاب الثلاثة، فجرير يتفوق فى الهجاء والغزل والرثاء ، بينما يتفوق الفرزدق فى الفخر والنقائض ، أما الأخطل فإنه يتفوق فى الخمر ، كما يتفوق فى المديح إن لاحظنا جزالة الأسلوب ومتانته ، أما إن لاحظنا المعانى والملاءمة فيها بين العناصر الجاهلية القديمة والعناصر الإسلامية الحديثة فإن جريراً يتقدمه ، ولا يبقى له إلا نعت الخمر .

والحق أن الأخطل يتخلف عن جرير والفرزدق جميعًا ، أما هما فيمتاز من بينهما الفرزدق بأبنية شامخة فى الفخر ، وقوة باذخة فى الشعر ، بحيث يمكن أن نسميه شاعر القوة . بينما يمتاز جرير بالعذوبة والأسلوب الرشيق والموسيقى الصافية .

وهذا الحكم الذى نحكم به على الأخطل وما نزعمه من تخلفه عن صاحبيه سبقنا إليه بشار بن برد زعيم المجددين من الشعراء فى العصر العباسى ، فقد روى ابن سلام أنه سأله عن الثلاثة فقال : «لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصبت له ، وأفرطت فيه ، فقال له ابن سلام : فجرير والفرزدق ؟ فقال بشار : كان جرير يحسن ضروبًا من الشعر لا يحسنها الفرزدق ، وفضل جريراً عليه»[(٢)] .

ونحن نتفق مع بشار فى هذا الحكم ، فالأخطل يتخلف عن جرير والفرزدق ، وكذلك جرير يتقدم الفرزدق بكثرة ما أحسن فيه من فنون الشعر ، فهو يتقدمه فى الهجاء والغزل والرثاء ، وإن كان ذلك لا يمنع الفرزدق من تقدمه عليه فى النقائض والفخر .

على أن حكمنا على الأخطل بالتخلف عن صاحبيه ينبغى أن لا يخفى عن أعيننا جانبًا عنده ، هو جانب الصقل فى الصياغة وتنقيح العبارة ، وذلك أنه كان من عبيد الشعر الذين يبالغون فى تنقيحه ويلحون فى نخله وتهذيبه . ومن

(١) الموشح للمرزبانى ص ١١٦ .
(٢) ابن سلام ص ٨٦ .

هنا كانت أساليبه أكثر استواء من أساليب صاحبيه ، ويبالغ الرواة فيما كان يتخذه لذلك ، فيقولون إنه كان ينظم تسعين بيتًا ، ثم يختار منها ثلاثين ، فيذيعها[١]. فقصائده مُنْتَخَبَة ، كل قصيدة انْتُخِبَتْ من أضعافها .

وليس من ريب فى أن هذا يدلُّ على جُهْد كان يَضْطلع به الأخطل ، فى صُنْع شعره ، فهو لم يكن ممن يفهمون الشعر على أنه شىء يصدر عن الفطرة ، بل كان يفهمه على أنه يصدر عن الخبرة والجهد والتثقيف والتنقيح ، فهو ممن يَعْمَلون شعرهم عملا ويتكلّفونه تكلفًا ، وما يزالون يُتْقِنُون فيه ، ويجوّدونه حتى يُخْرِجُوه مُسْتَوِيًا .

والأخطل من هذه الناحية يشبه زهيراً صاحب الحَوْلِيَّات ، وقد قالوا إنه صَنَع إحدى قصائده فى حَوْل كامل [٢]، فهو من هذه المدرسة التى كانت تَقْسو على نفسها فى صنع شعرها ، فما تزال تثقّفُ فى القصيدة ، وتَصْقُل ، وتجوِّد ، وتَفْحَص ، وتَمْتَحِن ، وتُجَرِّب ، حتى تُخْرِجَها نموذجًا تاما . ولعل ذلك ما جعل اللغويين يلاحظون أنه أكثر الثلاثة عَدَدَ قصائدَ طوال جِيَاد ، ليس فيها فُحْشٌ ولا سَقَطٌ[٣]. فأساليبه فى أشعاره أساليب منتخاة ، لا نُبُوَّ فيها ولا شذوذ .

وكل ذلك يَعْرِضه الأخطل فى موسيقى ضخمة فيها رَزَانة ووقار ، وفيها هذا الجو الذى يصلنا بالماضى ، ولذلك كانت موسيقاه شديدة الصلة بالموسيقى القديمة فى العصر الجاهلى . أما جرير فإننا لا نقرؤه حتى نشعر أن موسيقاه جديدة بحكم اندماجه فى الإسلام وحفظه للقرآن الكريم وتجاوُبِه مع عصره من جميع النواحى .

وجرير فى ذلك يتقدّم الفرزدق كما يتقدم الأخطل . فقد كان أكثر من الفرزدق استجابة للإسلام وطواعية له وانقيادا ، وكان كذلك أكثر منه قُرْبًا إلى الحياة الحديثة . لذلك كانت موسيقاه أقرب إلى معاصريه منه ، لما امتازت به من لين وصفاء ومرونة . وكان الفرزدق نفسه يشعر بذلك ، فيقول : ما أشْرَد قافيته[٤] ؛

---

(١) أغانى ٨/٢٨٤ وما بعدها .
(٢) أغانى ٨/٢٨٧ وما بعدها .
(٣) أغانى ٨/٢١١ .
(٤) أغانى ٨/١١ .

وكان الأخطل يشعر شعوره ، فقد روى الرواة أنه اجتمع يومًا مع الفرزدق فقال له: « إن جريرًا أُوتِيَ من سَيْر الشعر ما لم نُؤْتَه ، قلت أنا بيتًا ما أعلم أن أحدًا قال أهْجَى منه ، قلت :

قومٌ إذا استَنْبَحَ الأضيافُ كلبَهمُ ... قالوا لأمِّهمِ بُولى على النارِ

فلم يَرْوِه إلا حكماءُ أهلِ الشعر ، وقال هو :

والتَّغْلَبِيُّ إذا تَنَحْنَحَ للقِرَى ... حكَّ استَهُ وتمثَّلَ الأمثالا

فلم تَبْقَ سُقَاةٌ ولا أمثالها إلا رَوَوْه[1] » . فقضيا له أنه أسْيَرُ شعرًا منهما. وهذا نفسه كان يُحِسُّه معاصروهم ومن جاءوا بعدهم ، فقد سأل معاويةُ بن أبى عمرو بن العلاء ابنَ سلَّام : « أىُّ البيتين عنده أجْوَد : قول جرير :

ألستُمْ خيْرَ مَنْ رَكِبَ المطايا ... وأنْدَى العالمين بُطُونَ راحِ

أم قول الأخطل :

شُمْسُ العَدَاوةِ حتى يُسْتَقَادَ لهم ... وأعظمُ الناس أحلامًا إذا قَدَرُوا

فقال ابن سلام : بيتُ جرير أحْلَى وأسْيَر ، وبيت الأخطل أجْزَل وأرْزَن ، فقال معاوية لابن سلام : صدقت ، وهكذا كانا فى أنفسهما عند الخاصَّة والعامَّة »[2].

فشعر جرير كان أكثر سيرورة وانتشارًا من شعر صاحبيه بشهادتهما وشهادة النقاد لسبب بسيط ، وهو أنه أقرب إلى نفوس معاصريه ، إذ اندمج فى الحياة الجديدة بأكثر مما اندمج زميلاه ، فكان طبيعيًّا أن تصبح أساليبه أكثر ذيوعًا ، وأكثر أُلْفَةً للناس . أما الأخطل فكان محافظًا يتمسك بالقديم وأساليبه ، وأما الفرزدق فكانت فيه غلظة وخشونة ، وكانت فى أساليبه صلابة غير مألوفة ، فكان ذلك لا يُتيح لهما أن تنتشر أشعارهما وتَطير انتشارَ شعر جرير وطيرانه .

وكل من يقرأ الفرزدق يشعر أن موسيقاه تمتاز بكثير من الشذوذ والالتواء فى أساليبها ، وهو التواء وشذوذ أتياه من تمرُّده الذى اشتملت عليه نفسيته ، وهل منا

---

(١) أغانى ٨/٣١٨ .

(٢) أغانى ٨/٣٠٥ .

مَنْ لا يحفظ بيته الملتوى المعقَّد فى مديح إبراهيم بن هشام المخزومى خال هشام ابن عبد الملك ، إذ يقول فيه[١] :

وما مِثْلُه فى الناس إلا مُمَلَّكاً أَبُو أمِّه حَىٌّ أبوه يُقَارِبُه

فقد خالف فى ترتيب ألفاظ البيت حتى أصبح لا يكاد يُفْهَم مع أن الفكرة التى يحتويها بسيطة ، وهى تظهر من ترتيب الألفاظ على وَضْعِها السليم هكذا « وما مثله (الممدوح) فى الناس حى يقاربه إلا مملكاً أبو أمه أبوه » يريد إلا ملكاً هو هشام بن عبد الملك الذى يشترك معه فى الجد فهو ابن أخته .

وكما كان يأتى بهذا الالتواء وما يشبهه فى أساليب شعره كان يأتى أيضاً بشواذَّ نحوية ، يخالف فيها الطرق المألوفة فى الصياغة ، من مثل قوله[٢] :

وعَضُّ زمانٍ يابْنَ مَرْوَانَ لم يَدَعْ من المال إلا مُسْحَتاً أو مُجَرَّفُ[٣]

فقد عطف على كلمة « المسحت » المنصوبة بالرفع . وكان ذلك يؤذى اللغويين الذين كانوا يعاصرونه فى البصرة ، فكانوا يراجعونه ، وكان عبد الله بن أبى إسحق الحَضْرَمِىّ خاصة يُكْثِرُ الردَّ عليه ، والتعرُّض له ، فقال فيه يهجوه :

فلو كانَ عَبْدُ اللهِ مَوْلًى هَجَوْتُه ولكنَّ عَبْدَ اللهِ مَوْلَى مَوَالِيا[٤]

ويقال إن ابن إسحق حاول أن يُقْنِعَهُ بأن الصواب أن يقول « مولى موال » . ولعل فى ذلك كله ما يدلُّ دلالة واضحة على أن الفرزدق لم يكن مُهَيَّأً لأن تَصْدُرُ عنه موسيقى عَذْبَة ، إنما كان مُهَيَّأً لأن تصدر عنه موسيقى صَلْبَة ، وهو يختلف فى ذلك من صاحبيه ، فالأخطل بحكم تنقيحه وتثقيفه استطاع أن يُكَوِّن له موسيقى جَزْلَة فيها متانة ، ولكن ليس فيها صلابةُ موسيقى الفرزدق وخشونتها . أما جرير فكان نَبْعاً يتدفَّق ، وقد وصفه الفرزدق وصفاً دقيقاً ، فقال : « إنى وإياه لنَغْتَرِفُ من بحر واحد ، وتضطرب دِلاؤه عند طول النهر »[٥] . فهو يعترف بأن

---

(١) الديوان ص ١٠٨ .
(٢) النقائض ص ٥٥٦ .
(٣) المسحت والمجرف : المستأصل .
(٤) أخبار النحويين البصريين للسيرافى (طبع كرنكو) ص ٢٦ .
(٥) ابن سلام ص ٨٧ .

جريراً أقدر منه فى الاستمداد من نهر الشعر ، إذ يستطيع أن يستمد منه فى أى مكان يريده لا يتعسّر عليه ولا يتعذّر ، أما الفرزدق فكان كثيراً ما يشعر بحواجز تحول بينه وبين ما يريد ، وعبّر عن ذلك تعبيراً طريفاً ، فقال : « أنا عند تميم أشعرُ تميمٍ ، ولربما أتت علىّ ساعةٌ ، ونزْعُ ضِرْسٍ علىّ أسهلُ من قول بيت »[1] فهو يُقرّ بأن شيطان الشعر لا يُوَاتيه دائماً .

وهذا كله معناه أن موسيقاه لم تكن تطّردُ له ، بل كان كثيراً ما يجد فيها التواء وعسراً وصعوبة على صور مختلفة ، بخلاف جرير فموسيقاه ليّنةٌ سائغة ، تطّرد له اطّراداً ، وقد عبّر عن ذلك الأخطل فى جملته المأثورة التى مرت بنا فى غير هذا الموضع ، إذ قال : « جرير يغْرِف من بحْر ، والفرزدق ينْحَتُ من صَخْر » وفَرْقٌ بعيدٌ بين الماء السائغ العذب ، وبين الصَّخْر الغليظ الضخم.

---

(١) الشعر والشعراء ص ١٩ .